حكايات متشابهة

الزوجـــات؛
جيم الجنّة في الجحيم

صمود ضميري

© جميع الحقوق محفوظة، لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي من الكاتب.
© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means whatsoever without express written permission from the author.

حكايات متشابهة
الزوجات؛ جيم الجنّة في الجحيم
صمود ضميري

الطبعة الثانية ٢٠٢٣
رقم الإيداع الدولي ISBN 978-9950-8582-0-6

طباعة وتصميم:
مؤسسة امرزيان للطباعة والنشر - القدس
print@emerezian.com

نشر وتوزيع
المكتبة العلمية - القدس
www.educationalbookshop.com

طبع هذا الكتاب من ضمن فعاليات برنامج الشابات من أجل التوعية،
الوكالة، المناصرة والمساءلة (YW4A)
المنفذ بالشراكة مع مكتب العدالة بين الجنسين
في الكنيسة الانجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة
وFaith to Action Network
وبتمويل من وزارة الخارجية الهولندية.

توطئة

القناع ليس صديقاً، لكنّها تخلعه قليلاً، فيتورّد وجهها، وهي تقصّ عليَّ ما جرى. هيَ بمثابة ابنة لي، وصديقة صريحة، لها وجهٌ واحد، هو الحقيقة كما تراها.

وكثيرًا ما سَردت غير حكاية جارحة، عن اللواتي وصلنَ إلى الجحيم، بعد أن تضافرت ظروف قاهرة ظالمة، لتدفعهنّ إلى ذلك المصير المصوّح المخيف. إنهنّ ضحايا بامتياز.

وشيءٌ ما أسود، يخرُّ في شراييني كلّما جاءت على سيرة إحداهنّ.

هي قاضٍ شرعي، ومن الطبيعي أن تمرَّ عليها كل تلك القصص الجارحة الذابحة، فتعود إلى بيتها مُثقلة بدموعها ودموعهنّ، ولا تكاد تتنفّس من أثقال وأهوال ما وقع لهذه أو تلك.

كانت الصديقة القاضي صمود ضميري بحاجة لصديق لتفرّغ ذلك الزجاج المطحون الذي يُدمي صدرها، لتخفّف من مخالبه الطاعنة، فأكون لها المستمع الجيّد، كانت تحكي، بشكل مجرّد، بمعنى لا تذكر الأسماء أو التواريخ أو الأماكن حرصاً منها على خصوصية الضحايا والحكايا، وحتى لا يُفضح أحدٌ من الذين سترهم الله تعالى.

لكنّني ألحفت عليها كثيرًا لأنْ تكتب تلك القصص، وتدفعها للقراءة، لعلّ الناس تعتبر، وليس من باب التشهير أو نشر الغسيل غير النظيف على حبال المجتمع.

ويبدو أنّها اقتنعت مؤخرًا، فَدَفعت لي بهذه القصص، دون أي إشارات تدلل على الشخص أو الأماكن أو زمن الحدوث، فاحترمت رغبتها، وقمت بالاطلاع على القصص، إلّا أنّي بدّلت في بعض الأحداث الجزئية أو نهاية بعض القصص، دون أن أبدّل جوهر الحكايا، إمعاناً في دفع الشُبهة، وتأكيدًا على مأساوية تلك الحكايات.

وفي المؤتمر الثالث، الذي أقيم في شهر كانون أول ٢٠٢٢، في رام الله، بعنوان العدالة بين الجنسين من منظور المواطنة والدّين، قدَّمت الأخت صمود ورقتها، وأشارت من بعيد إلى غير قصّة، بصورة عامّة دون تخصيص، فكان من توصيات المؤتمر أن يتمّ جمع هذه القصص ونشرها في كتيّب، لعلّ المتلقّي يُطلّ على جانب مسكوت عنه في مجتمعنا.
إنّني أؤمنُ أنّ الأحلام مضيعة للنوم الجيّد، إذ علينا ألّا نبقى هناك فيما مضى، أيّ لا نسكن الماضي عند الحديث عمّا يجري من مآسٍ وكوارث.
كما اعتقد بأنّنا إذا نظرنا طويلاً وعميقاً وتبأرّنا في مجتمعنا، أو أي مجتمع، سنجده غريباً! أو ثمّة هامش أكثر غرابة وسريالية مما نعتقد.
إنّ أوراق صمود أصدرت حفيفاً في قلبي، كأنّه فحيحٌ ناعمٌ سُمّيّ، سرى في العروق وتصاعد...ولم يطفر العسل من فمي، بل اللعنة والسواد.

وكلّنا يعي أنّنا نقع تحت قمعْين؛ الاحتلال والحمولة الخاطئة في موروثنا، وعلينا أن نفكّك هذه الأثقال والتحديات بهدف مواجهتها، وعلينا تنظيف الجُرح والندوب الصدئة.. حتى تبرأ.

لا أحد يلد فاجرًا أو شاذًا أو قاتلاً أو مهوساً. إنّها الظروف والتربية المخاتلة، ونظرية عوامل متعددة...تتّحد لتصل ببعضنا إلى حافّة الضياع والهاوية.
ثمّة جوانب ومواريث معطوبة، ومنحلّة أو تائهة في السواد، وقد تحوّلت إلى نملٍ وحشيّ يأكل القلوب.
إن قصص صمود، القاضي الحريصة على إصلاح الخطأ وتجاوز الخطايا، هي محاولة إنسانية مباشرة، لم تتغيّا الفنية والمقترحات الجَمالية، ولم تبحث عن المدارس الأدبية التي تؤصّل كتابة القصص الأدبية وترشد إليها.
لقد رغبتْ أنْ تنقل القصّة كما هي، بالبداهة والمباشرة، كأنّها حكواتي يحذّر مما يجري من سقطات تحت أقدامنا، وهيَ صوت يصيحُ حتى يتنبّه الجميع، كلٌّ حسب موقعه، لكيْ يعمل ما أمكنه، وليتوقف هذا الانهيار المرعب في جوانب من بناءاتنا، التي نعتقد أنّها مصانة وراسخة.
إنّ هذه القصص صرخة، دون تجميل صوت المنادي، حتى يرجّ الساكن والمشتكين، لعلّنا نسمع قصصاً أخرى، أكثر معقولية وجمالاً وإنسانية، وحتى أرى وجه صمود يتوهّج فرحاً، وليس غضباً أو أسفًا عمّا يسعى في العتمات من حوادث.

شكرًا صمود على شجاعتك الأدبية، وحرصك على خصوصية الضحايا.
فقد وصلت رسالتك يا صديقتي.

فشكرًا جميلاً
د. المتوكل طه

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى اخوانه في الهداية رسلاً وأنبياء، والحمد لله على توفيقي؛ لأكتب عن تجربتي القضائية التي بدأت منذ ثلاثة عشر عاماً ولا زالت، والتي جعلتني أقف على كلّ مكوّنات حياتنا، كي أفهم كيف تتخلخل قواعد الاستقرار الأسري، وتصبح نزاعات علنية على طاولة القضاء.

كبار صغار، ومن كلّ الأعمار، استقبلتُ متقاضين، في معاملات ودعاوى زواج وطلاق ونسب وشؤون قصّر وشؤون أيْتام وتركات وغيرها، كلّها مرّت ملفات على طاولة مكتبي، من شمال فلسطين ووسطها وجنوبها حتّى مِن لاجئين في الخارج، وراجعني آلاف المتقاضين، ونظرت آلاف الدعاوى دون أن أعرف أطرافها، وشاهدتُ تفاعلات مختلفة من المتقاضين، مع أنّ الموضوع القضائي قد يكون واحد.

ثمّ بدأتُ ألاحظ تأثير التقسيم السياسي أ، وب، و ج. ثمّ حضر إلى مشهد التقاضي تقسيم الأراضي الفلسطينية بين القدس والضفة الغربية وقطاع غزة، ثمّ ظهر تقسيم فلسطين؛ إلى أقاليم قانونية إلى جانب الأقاليم السياسية؛ وهو ما يعرف بالتعددية القانونية، وظهر تقسيم القوانين دينيا وطائفياً، والفرق بين الهوية الفلسطينية وحقوق المواطنة.

إنّ كل ما تقدّم تقاطع مع بيئات المدينة والريف والبداوة، وبيئة المخيّم

كمنتج جديد للاحتلال، وجميع المكوّنات تتقاطع مع الموروث بكلّ مكوّناته من عادات وتقاليد وهوية ودين، إلى جانب مستجدّات العصر الحديثة؛ وعلى رأسها التكنلوجيا بكل تقنياتها ومدخلاتها.

أذكر أنّ طفولتي ارتكزت في التربية على حديث وتعليمات الوالديْن والأجداد، وتأثيرات العائلة الممتدة والحيْ، والتعليم المباشر من المعلّمات مع بعض النقاشات معهنّ. وإنّ مشاهدة التلفاز كانت محدودة؛ ولم أسمع في حينه أي نقاشات سلبية حول برامج ومسلسلات الأطفال المحدودة المعروضة، مثل أنّها تُخفي أيْ إشارات من شأنْها المساس بتربية الأطفال أو التأثير عليهم سلبًا. وحتّى أنّ السياسة كان إدراكنا لعناصرها وتفاصيلها بالمشاهدة المباشرة لما يجري في الواقع، أو ما يُقدّم من خلال نشرتيْ أخبار من محطتيْ تلفزة وليس أكثر، وبطبيعة الحال، إنّ الفلم العربي الذي كان يُعرَض مرّة واحدة في الأسبوع؛ كانت مشاهدته مراقبة من قبل الأمّ غالباً أو قد يُمنع. والنّوم كان مبكّرًا، حتى عند الكبار، لأنّ النهار للعمل والدراسة وفيه مختلف النشاطات، واللّيل للنوم، هذه القواعد كانت تُطبّق بسلاسة.

والغريب أنّنا كنّا قليلاً ما نسمع عن مشاكل عائلية نتيجتها طلاق، لكنّ غضب الزوجات كان يحصل، والتدخّل العائلي القوي كان حاضرًا، إلى جانب ثقافة الأسرة التي كان يحكمها البقاء والديمومة. فما الذي حدث؟ هل أصبحنا أقلّ انضباطا لمنظومة الأخلاق؟ أم أكثر استهتارا بما يجب أنْ نفعل وما لا يجب؟ أم ضعفت أهمية الأسرة في الأذهان؟ أم أصبح الفرد أهمّ في مقابل الأسرة؟ أم أصبحت الحياة أكثر ضيقاً

بمواردها؟ أم فقدنا القدرة على المتابعة وخاصةً التفاصيل؟ وهل دور الأبّ تراجع؟ هل دور الأمّ ضاق الوقت عليه؛ لأنّها تعمل؟ هل الأسعار أغلى؟ هل الوازع الديني والأخلاقي أضعف؟ هل كل التغييرات بسبب الاحتلال؛ لأنّه أضعف قدرتنا على بسط القانون أم لأنّه سرق مواردنا، وسرق الأرض؟ أم لأنّه سيطر منذ حَلّ على الهواء والسماء والحدود، حتى ضيّق علينا العبادة؟

يبدو أنّ المؤثرات في تربية أطفالنا ازدادت؛ واقتحمت حياتنا، من غير استئذان، ويبدو أنّ قدرتنا على لجمها محدودة، ويبدو أيضاً أنّ قدرتنا على إدارة الوقت ضعفت. ومع أنّ التعليم في شكله الحالي ومعاييره المعلن عنها أرفع؛ لم ترتقِ الحياة كما نريد!، على الرّغمَ أنّ التعليم فيما مضى، كان يَخلق لمن أتيحت لهم الفرصة، تولّي مراكز اجتماعية، ويُرفع شأنهم داخل المجتمع.

وبتنا حالياً دائمي الشكوى، ونرصد الخطط والجهود والأموال، للتخفيف والحدّ ممّا نصفه من انهيارات متتالية داخل المجتمع، فماذا حدث؟

ممّا لاحظت؛ أنّ زواج "الطفلات" أيْ من هنّ دون سنّ الثامنة عشرة؛ محميّ بقناعة الجماعة في بعض المناطق، وتغذّت عقول الطفلات به كمآل، والأهم عند فحص بيئة معيشتهنّ، نجد أنّ الزواج هو الخيار شبه الوحيد المطروح، إلى جانب الدراسة المقيّدة بظروف العائلة، لأنّ هذه المناطق قد تكون بعيدة عن مركز المدينة والخدمات، وتتّسم بمحدودية الخيارات حال التسرّب من المدرسة، وأدركتُ صعوبة الاستمرار في الدراسة، حيث لا تتواجد المدارس الثانوية أحياناً في مناطق سكناهنّ،

وبالتالي تحتاج الفتيات إلى موافقة للتحرّك، وبالتبع يحتجن مواصلات آمنة ورخيصة، وبالتالي، يجب أن تتوفر القدرة الاقتصادية لذويهنّ لدفع المصاريف اليومية والاقساط الجامعية، حال تَمكنّ من الوصول لهذه المرحلة.

هذا مثالٌ، يتبعه خارطة لفجوات تظهر بين المواطنين تباعًا في الخدمات الصحية، والخدمات القانونية، والقدرة على الحصول على المعلومة، والقدرة على الاتصال والتواصل، ومستوى التمكين الذاتي وطبعاً منه الاقتصادي، وبالنتيجة يظهر مستوى القدرة على الحماية الذاتية، وما هو مستوى الحماية داخل المجتمع، وما مدى قدرة المؤسسة الرسمية ومؤسسات المجتمع المدني على التدخل والحماية؟

اقترب مشواري المهني من عيد ميلاده العشرين، وأصبحت ذاكرته مليئة بالمشاهدات، أردت أن أروي ما تيسّر، كيْ أعبرّ عن التزامي بجوهر المقولة المنسوبة للإمام علي بن أبي طالب- كرّم الله وجهه-، وقدْرُ كلّ إمرئٍ ما كان يحسنه، حيث أعتبرها من القواعد المهمة التّي اتخذتها في مشواري كزوجة وأمّ، وفي مشواري المهنيّ، ومنه القضائي على وجه التحديد، وشكّلت هذه المقولة وقودا لا ينضب لشغفي في التعلّم.

أريد أنّ أساهم في تذكير الناس، أن ينتصروا لمقوّمات انسانيتهم التي تقوم على حفظ الحياة، وصون الكرامة، والحريّة، فهذا مثلّث إلهي حُفظ فيه البشر، ولكنّ كثيرين لم يتّبعوا الله، وهدروا كرامات الناس وحجزوا الحريات بشتّى الطرائق والسُبل، وارتكبوا الظلم الذي حرّمه الله

حتّى على نفسه، ولم يكتفوا بارتكاب الموبقات ضدّ الإنسانية، بل أمعنوا في التفريط في القيم، ولم يغذّوها لتنمو الإنسانية.

وكثيرٌ من النّاس ركض خلف تعلّم اللّغات دون فهم ثقافتها، ولم يدرسوا كيف كوّنتها التفاعلات الإنسانية عبر التاريخ. وأبهرت كثيرين تدريبات الدبلوماسية والإتيكيت، ولم يطوّر أحد أدوات قياس لرصد مستوى تأثّرنا الداخلي بها، وهل تداخلت مع هويتنا وعاداتنا لنرقى؟ وهل أصبح آداؤنا أفضل؟ كيف نتأمّل إعلانات التعليم وتحوّل برامج التعليم إلى موضة؟ والسينما موضة، والأعراس موضة، والمشروبات موضة.

ليس عيباً أن نتبع الموضة لنستمتع؟ ولكن العيب أنْ نشتريها كما هي ونسوّقها دون أجر؟ والعيب أنْ يتبعها أولادنا في طقوس الأعراس وأثناء ممارسة الحياة اليومية، دون نصيحة من الأمّ أو الأب أو من كليهما.

ليس حراماً ولا عيباً؛ أن يدفع العريس إنْ كان راضياً ومقتدرًا، تكاليف باهظة لحفلة العرس! ولكنّ المقلق أنْ يأخذ قرضاً بنكياً لذلك، وينفق ما تبّقى منه أيّام عسل. والمقلق أكثر أنّ العروسين خطتهما الحالية؛ فقط الحفل وتفاصيله، ولا يتشاركان النقاش حول الزواج ومفهومه، والغريب غياب الإرشاد والنصيحة من الكبار!

وفي ظل النظر إلى كلّ الزوايا نجد الابن يناقش أمّه حول درس التربية الإسلاميّة، الذي يصف المرأة التي تضع العطر؛ بالزانية! وأتأمّل في المناهج الدراسية؛ صعوبة وصف الوطن والحدود والهوية والعادات والتقاليد، في ظلّ وجود الاحتلال والتمويل المشروط، ونقاشاته حول

شكل المنهج الفلسطيني، وكيف يمكن أن يغذّي بتوجيهاته" تعليماته" قيم التسامح والسلام؟!

أشعر بغربة تشريعية في ظل تطبيق نصوص عثمانية وأردنية ومصرية وأوامر عسكرية إسرائيلية في كلّ شؤون حياتنا؟ وذلك بعد أكثر من ثلاثين عاماً على ولادة السلطة والمجلس التشريعي! ولم ننجح بصياغة قانون أحوال شخصية فلسطيني، ولا قانون عقوبات فلسطيني، ولا قانون جنسية يعرّف من هو الفلسطيني! وغيرها.

أفكّر في الخدمات التي تقولبت في حدود السياسة والحلول السياسية المؤقتة، فمورس الإقصاء تلقائياً، ولا زال تخليق طبقات من المهمّشين مستمرًا. وأُمعن التأمّل في انقسام التقارير الوطنية ونشرات الأخبار إلى قسمين؛ الأول: يرتكز على قدرتنا الوطنية على إيفاء الحقوق وحفظ الأمن في أقاليم، والثاني : على تحميل الاحتلال إعاقتها أو منعها في الأقاليم الفلسطينية الأخرى، والنتيجة؛ حرمان مواطنين من الخدمات؛ حرمان يمتدّ أفقيا، ولا يرتفع عمودياً، لأنّ القادرين والأغنياء لديهم البديل، ويعمّ الحرمان حياة الجميع في المخيم، وهنا نتذكّر كيف تغيب المخيّمات عن خارطة الخدمات، وعن خطط القطاعات الرسمية وغير الرسمية المتعدّدة، وتتوه في أجندة الأونروا التي يفتر دورها كلّ يوم، ولم يبق من المشهد العام والدولي، غير اللجوء!

نحتاج لمراجعة شمولية تبدأ من مراجعة أبجديات الهويّة، وإعادة وضع تعريف واضح "للفلسطيني "على الطاولة بشكل عابر للدين والجنس والتعددية السياسية واللّجوء، وعلينا أنْ نفحص كلّ ما سُنّ من قوانين،

ومدى انسجامه مع هذا المبدأ، ومع القيم والعادات والتقاليد، والبدء بتحييد السلبي منها كما نريد نحن؛ لأنّ ذلك سيعطينا المجتمع الذي نريد. علينا أنْ نكبح بالعلم وقراءة التاريخ بشكل صحيح وناقد وموضوعي كلّ من يحاول التلاعب في حياتنا، وخاصةً من يحاولون توظيف الدين للتأثير في العوام، وعلينا أن نلجم كل من يثير النعرات على إطلاقها، حتّى التي وصلت إلى تصنيف خططنا إلى ذكورية ونسوية.

علينا أن نراقب الموازنات "الرسمية وغير الرسمية" بشكل علمي، لأنّها تُجنى وتُنفق باسم الشعب الفلسطيني، علينا أنْ نتعلم كيف نقضي وقتنا، لنشعر جيدًا بمشوار العمر، ولا نتفاجئ بمرور الوقت سريعا؟ وعلينا أن نتعلم كيف ندير مواردنا وخاصة المالية منها، لكيْلا نصبح أسرى القروض وأسرى الاستهلاك، كي لا نبقى دولاً نامية تتلّقى المساعدات، لعلّها تلحق بالعالم المتقدّم. وعلينا أنْ نفكّر بمهن جديدة غير الطبيب والمهندس، كي نتعلّم كيف تُصنع التكنولوجيا ولا يسهل التحكم فينا ولا التجسس علينا. وعلينا أنْ نراجع خطابنا الذاتي وخطابنا العام، كي نخرج من نظرية المؤامرة وننطلق إلى الأمام. وعلينا.. وعلينا..

أعتقد أننّا يجب أنّ نستجمع قوانا لندافع عن انسانيتنا كما أرادها الله، واعتبر أنّ واجبي امرأة وزوجة وأمّ وابنة وأخت وعمّة وقاضي، الزمني بكتابة بعض الحكايات، لتذكّرني وتذكّر كل من يقرؤها أنّنا علينا؛ مسؤولية **أنْ لا نترك أحدًا خلف الرّكب**. لأنّ الحكايات المتشابهة؛ التي سُطّرت في هذا الكتاب، لنساءٍ ضحايا من كلّ ما ذكر، من تأثيرات فكر الذكورة وقد تتبنّاه نساء، ومن استعار نار الطمع لأكل الميراث، ومن

مفاهيم منحرفة للسترة والشرف. ومن غياب للقيم، ومن تعظيم لدور القبيلة باسم السلم الأهلي والاجتماعي وتغييب القانون. ومن جرأة على تكفير من يخالف بالرأي دون خوف ولا تردّد، ومن تحديد أدوار النساء، واستخدام منابر الله لترويجها، ومن إطلاق لقب "شيخ" على كل من يُطلق لحيته، ومن تقديس الماضي، ومن إيقاف الاجتهاد، ومن حصار كل من يريد النقد أو حتّى النقاش.

الحمد لله على إحسانه وله الشكر على توفيقه، والشكر للدكتور المتوكل طه؛ الذي ساعدني على تصدير جزء من تجربتي إليكم، وشكرًا له، لأنّه ساعدني على التحرّر من بعض القيود، فقد خاطب إنسانيتي وأنوثتي وأمومتي وضميري؛ لأنطق وأتكلّم للعلن، وأخاطب الفضاء المفتوح خارج بيتي المهني المتخصص.

شكرا للكنيسة اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة ممثلة بالمطران سنّي عازر، على دعمها، وعلى تبنّيها الواعي للمبادرة الأولى "مجلس الحكيمات" مع شريكتي القاضي سكارليت بشارة، وكان هذا الإصدار. شكراً لوالديْ على منظومة القيم التي زرعوها، لأنّها شكّلت ضميري النابض الذي أوصلني هنا. وشكرًا لشريكي زوجي، الذي لم يحارب طموحي، ويؤدّي دوره معي في تربية أبناءنا بوعي وبصيرة، وبما اتفقنا عليه من قيم موروثة، وذلك إدراكًا منّا لما يقع على عاتقنا من مسؤولية، لما يجب أن يتوفر في مواصفات جيل المستقبل،

شكرًا لكلّ الأصدقاء.

القصة الأولى

ثمّة غياب جارح لمفهوم "المجنون". بمعنى هل يجوز زواج المجنون من فتاة عاقلة؟ لدى البحث لسبر غور هذا السؤال لم نجد إجابة شافية، إذ تغيب تفاصيل جوهرية من شأنها أن تحدّد مستوى الجنون وماهيته، حتى نحكم إنْ كان الجنون هنا حالة مرضية أم طارئ، أم أنّه حالة مزمنة غير مؤذية، أم أنّها حالة جنون مطبقة، لا يستطيع معها هذا المجنون الكامل أنْ يعي معنى الزوجية وما عليها وما لها.

فكلّ ما في الأمر يذهب وليّ المجنون إلى القاضي، ويطلب الإذن لكي يزوّج ابنه أو أخاه، لكنّ القاضي عامةً، لا يفحص إن كان هذا الزواج سيدفع الضرر أم سيحقق المصلحة بشكلٍ واقعي، والسؤال كيف هي ملامح المصلحة هنا؟

هذا بشكلٍ عام! لكنّ حكايتنا هنا هي أقرب إلى الناقوس الذي يصوّح الأسماع، لعلّ القضاة يعيدون النظر في قوالب المصلحة المسطرّة على ورق، قبل أن يعطوا الإذن لتزويج المجانين. أيْ على القانون أن يكون شاملاً وعارفاً، ويذهبُ الى التفاصيل حتى يكون أرضاً تصلح لإقامة بيت زوجية عليها.

والقصة من أوّلها، أنّ رجلاً له غير ابنة فيما لم يرزق إلا بولد ذكرٍ مجنون، واتفق أن كَبُر هذا الولد، وقد خاف الأب على أنْ لا يكون له وريث حفيد

يحمل اسمه، أو ربما خشي من أصهاره أزواج بناته، بعد وفاته، أن يَحجُروا على ابنه ويستولوا على الميراث كاملا.

فماذا فعل الأب؟

راح يبحث في القرى النائية عن بيتٍ فقير يغريه بمهرٍ كبير ليأخذ إحدى الصبايا، لعلّها تقبل بابنه زوجاً، وقد كان. لكنّ الولد المجنون لا يعرف ما الزواج، رغم محاولات الصبيّة لأنْ يفترعها لعلّه يصبّ في رحمها جنيناً يُهدّئ من هلع الأب.

ومرّت الأسابيع والشهور والصبية ما زالت بكرًا، تتمدّد على ضفة سريرها البارد، فيما يكتفي المجنون بطبع قبلة على خدّها كأنّها أمّه أو أخته.

ويبدو أنّ الأب قد فقد صبره، واستبدّ به جنونه ورغبته في أنْ تحمِل كنّته من إبنه، وعندما تأكدّ له عجز ولده، أغلق الأب الأبواب واغتصب كنّته، التي زاغت وهامت من هول المفاجأة، وحاول أنْ يُقنعها أنّه لا سبيل أمامه وأمامها لحفظ أموال العائلة إلا بوجود حفيد.

واستمرأ الأب لعبته المجنونة، وراح يلحف على جسدها بجسده شهورًا عدة، حتّى أرهصت الصبية بحملٍ كَوّر بطنها!

كانت الفتاة وكلّما حلّ الليل، تخنس وتنكفئ على نفسها وتجهش بالبكاء الخشن، ويبدو أنّها أعلمت زوجها المجنون، بما يفعله أبوه، فما كان من هذا المجنون إلّا أن اتجّه إلى المطبخ وتناول ساطورًا وفتح باب الغرفة على أبيه النائم وحزّ عنقه، وكأنّ مفهوم الشرف يُحرّك النفس، وإنْ كان وعاؤها مجنوناً، وربما قهقه من فوران الدم ولم يعِ تصادي صرخات زوجته، التي أفزعتها مسارب الدم الذي وصل من غرفة القتيل إلى سريرها.

وربما كان للحكاية خاتمةٌ أخرى؛ إذ لم يدرك المجنون ما يفعله أبوه، لكنّ عقرب الغيرة قد تحرّك في صدر أمّ المجنون التي هي حماة الصبية، والتي لم تحتمل أن ترى زوجها ينزو على كنّتها، فراحت إلى القاضي وفضحت الأمر. فقامت الشرطة بجلب الجميع وبدأ التحقيق فأقرّت الصبية واعترفت، واعترف الأب دون وجل أو خجل.

وقيل لقد كان الأب يعطي الفتاة مخدرًا إلى أنْ أدمنت ثمّ راح يبتزها بالجرعات القاتلة، ثمّ حملها إلى بيت في قرية مجاورة واسكنها فيه وظلّ يباضعها هناك.

وعلى الرغم من أنّهم وضعوا الأب وراء القضبان، وعادت البنت التي شارفت على الوضع مع مجنونها الى البيت، إلّا أنّ الأم لم تحتمل ما فعله زوجها، فوقعت لا حراك فيها. لعلّ المجنون الذي صار يحمل الطفل الوليد حديثاً فرحاً به باعتباره ابنه، هو ذاته الذي لا يعي أنّ هذا الطفل أخوه.

وقد قيل إنّ الجاهل ينعم في الشقاء.

القصة الثانية

تزوّجها، لكنّه كان عِنّينا، فصمتت العروس خجلاً، فلربّما يستعيد قدرته بعد حين. ومرّت الأيام والرجل ليس برجل، فماذا يفعل؟

كان يقطن في المدينة فأقنع عروسه بأنّه سيطلقها، بشرط أن يزوّجها من صديق له، بعد انتهاء عدّتها. فماذا فعل؟

ذهب إلى دولة مجاورة معها وكتب عقدًا جديدًا هناك، تزوج من خلاله صديقه بعروسه، ثمّ عادوا كلّهم إلى المدينة، واكتشف صديقه أنّ طليقة صاحبه عذراء، إذ لم يستطع الأوّل من أن يحيلها إلى امرأة، وكانت العروس ترفض أنْ يأتي زوجها الأوّل برجل يعاشرها بالحرام لتحمل منه وتغطّي على عجز زوجها الأول.

ومع الأيام حملت المرأة من زوجها الجديد مرّة إثر مرة، إذ كان الزوج القادر يأتي ليعاشر زوجته، ويذهب إلى حاله، فيما بقي الزوج العاجز في الغرفة الأخرى، إذ يبقى ربّ الأسرة أمام الناس، إضافة إلى أنّه هو المتكفّل بمصاريف المرأة وأولادها من صديقه. وأفرزت الأيّام حباً بين المرأة ومن استطاع أنْ يظلّلها برجولته. وبعد عقدٍ ويزيد طالب الأب الحقيقي بأولاده، لكنّ الزوج الأوّل العاجز كان قد سجلّهم باسمه على اعتبار أنّ الولد للفراش، ولديه عقد زواج شرعي يربطه بالوالدة ويحميه. لم يستطع الزوج الثاني أن يأتي بصورة عقد زواجه من الدولة التي عقد

قرانه فيها، ذلك لأنّ الشيخ الذي عقد القران كان مزيفاً وكذلك الشهود.
والأطفال الذين بدأوا بإدراك الحياة كانوا ببراءتهم ينادون الرجل الثاني- الأب الحقيقي- "بابا" ولم يتضارب ذلك مع وجود الرجل الأول، في واقعهم الذي اعتادوا فيه على هذا التواجد.
امرأة رهينة للخوف من الفضيحة والقتل ومن مواجهة المستقبل عندما يدرك أطفالها، لم يسعفها نطقها الملجوم بانزلاقها تحت وطأة من فقد رجولته، أربكها فيما ليس لها ذنبٌ فيه، حتى أغرقها، ولن تنجو مهما طالت سنوات عمرها، ولها أطفال أحياء، تخاف أنْ يكبروا فيفهموا، رغم أنّ نموّ الصغار حُلم كلّ الأمهات.
والفاقد لرجولته، أمعن في ذبح مروءته، وتمكنّت نفسه الأمّارة بالسوء من حَبْكِ المستقبل، ولربّما إلى حين، وإيماني بالله سبحانه وتعالى يقول إلى حين، وربّما تصاب المرأة بالجنون مما حدث لها وحدها، أو يصاب أهلها بالجنون والذهول، ولربما سيصاب الصغار الذين لم يدركوا بعد ما الذي حدث! سيصابون أيضاً بالذعر والجنون، ولربما سيحسّ القاضي بالجنون أيضاً.

القصة الثالثة

هل أجرم القاضي بإنشاء وقائع كاذبة!؟ أم أنّ الغاية تبرر الوسيلة، بمعنى أنّ القاضي ذهب إلى هذا "التحوير"حتى يحقن دم ابنة أحبّت ولدًا فحملت منه خفية دون عقد؟
تبدأ القصة بفتاة من عائلة مستريحة في سنتها الجامعية الثانية حسناء إلى حدّ الدهشة، لكنّها أحبّت عاملاً بسيطًا في كافتيريا الجامعة وكان ما كان بينهما.
لكنّ المأساة تكمن في أنّها حملت منه، فما كان من أمّها إلّا أن نقلتها الى جامعة بعيدة واكترت لها بيتاً إلى أن وضعت حملها، ثم وضعت الوليد في عهدة أسرة مستورة مقابل راتب شهري.
ويبدو أنّ الأرض صغيره إذ أحس والدها بالأمر، وكان لا بدّ من إيجاد صيغة لِلفلفة الموضوع، وإخراج القصة بكيفية مشرّفة، فاتفقا مع عامل الكافتيريا، أنْ يأتي وأهله ويطلب الفتاة ويعقدون قرانهما. وتمّ الأمر.
لكنّ ثمّة رضيعاً ينادي أمّه الملهوفة عليه، فاتفقت مع زوجها أنْ ينتقلا إلى تلك المدينة البعيدة ليسكنا هناك، حتى يمرّ الزمن وتحمل في السفر! ثمّ تعود زائرة ومعها طفلها، وكان لا بدّ إلّا أن يجعلا تاريخ عقد الزواج قبل مولد الرضيع بستة أشهر على الأقل. فذهبا إلى القاضي وفردا المشكلة على الطاولة، وادعيّا بزواج عرفي قبل العقد العلني الشرعي، ويبدو أنّ

القاضي فهم المخفي والغاية، ويبدو أنّ للقاضي ابنة في الجامعة وربّما تكون زميلة هذه الأمّ الصغيرة! فماذا يفعل؟
لقد تمّ لهما ما أرادا وثبّت زواجهما بتاريخ سابق مسند إلى الماضي، الذي كاد أن يعصف بهما، وأحسب أنّه كان مطمئناً.

القصة الرابعة

لم أتوقع أن تدفع الباب بقوة وتصيح: هو ابني!
لم أحتج كثيرًا من الوقت لأكتشف بأنّها مريضة نفسيًا أو أنّها غير طبيعية، أو أنّ سذاجة إلى حد "الهبل" تعتريها.
هدّأتُ من روعها وأجْلَستها، فيما بقيت تحكي وتبكي وتجوح وتهمد وتبتسم وتنكمش وتحتدّ.. وعرفتُ من تكون، فحملتها إلى أهلها المقيمين مع موظف لدينا في نفس الحيّ، لأسمع ما سمعته.
قالوا : إنّها معتوهة غير سويّة ومنذ ثلاث سنوات اكتشفنا أنّها حامل ويبدو أنّ أحدًا من أبناء العائلة قد نزا بها، بل أنّ أكثر من واحد من شباب العائلة أبناء العمومة والخؤولة، قد ألحف عليها، فحملت من أحدهم، وكان لا بدّ من مداراة الفضيحة، فوضعوها في غرفتها إلى أنْ فاجأها المخاض، وجاؤوا بقابلة من قرية مجاورة ساعدتها على الوضع ثمّ اتّفقت العائلة على تسمية المولود باسم اخيها وزوجته، على أنْ تبقى

أمّه الحقيقية المرتبك إدراكها؛ مرضعة له حتى يصحّ شأنه، وربما كانوا يتركونه معها لتبرّم زوجة أخيها من هذا الوليد الذي أصبح ابناً لها رغما عنها.
لم أدرِ ماذا أفعل سوى أن أقرّ بهذا الحلّ العقلاني الذي يستر ما أمر الله بحفظه، وعدتُ وقضية هذه المرأة ترغي في رأسي. بعد أيام سمعت أنّها ماتت في المشفى فتوجست من أنّ جريمة مدبرة قد وقعت، لكنّ الحقيقة أنّهم حملوها لإزالة رحمها في عيادة خاصة حتى لا يتكرر عارها. وما زالت الحكاية تتكرر.

القصة الخامسة

تزوجا منذ ربع قرن ولم ينجبا. كانت شقتهما في الدور الأوّل العلوي، وشقة شقيقة الزوجة الأرملة في الدور الأرضي. وبدا كأنّهما أسرة واحدة يجتمعان صباح مساء، يأكلون ويشربون دون حواجز أو شُبهة أو أي حدثٍ ناتئ.
كان الزوج يعتبر أبناء الأرملة أبناءه، يحنو عليهم ويعطف ويعتبرهم من صُلبه، فيما كانت زوجته تصُرّ على أنْ ينادونها "بماما"، وكانت أمّهم الأرملة سعيدة بهذا الدفء الأسري، الذي يحوطها وأولادها بهذه الرعاية والمحبة والحنان.
ويبدو أنّ الشيطان "شاطر" إذ اجتمع مع الرجل والمرأة الأرملة وكان

ثالثهما، ويبدو أنّ علاقةً قد تنامت بين الأرملة وزوج أختها.
ويبدو أنّ الشيطان لا يقرّ على قرار واحد، إذ حملت الأرملة وانكشف الأمر، وأصبح لدينا قضية.
لا أنكر أنني وجدت سبيلاً مريحاً لقبول ما فعل الرجل وأخت زوجته الأرملة؛ من تسجيلٍ للوليد باسم الزوج وزوجته، اللذين لم ينجبا، حلّا للمشكلة وتجاوزًا للفضيحة. لكنّ الزوجة التي أرعدت وأزبدت وفقدت رشدها قد رفضت، عداك عن أنّها شنّت حرباً شعواء على أختها التي اتهمتها بالفجور ووعدتها بالخراب والثبور.
بعد أربعة شهور من صبري، وإرجاء البتّ بالملف، قبلت الزوجة أن تصبح أمّا للولد، وكانت قد اشترطت رحيل أختها الأرملة إلى سكن بعيد عنها.
جاؤوني بعد أيام لاستكمال الإجراءات وسحب أيّ ادعاءات أثيرت، وكم كانت مفاجأتي عظيمة، وأنا أرى الأمّ الجديدة تحتضن المولود كأنّه قلبها بين ذراعيها.
لقد دُهشت وذُهلت عندما جاء الرجل بالطفل وهو يناغيه باعتباره أباه الحقيقي، ووضعه بين ذراعي امرأته التي حملته بين ذراعيها على كرهٍ في البداية، ثمّ ضمته إلى صدرها كأنّه ابن بطنها، وأذهبت شهيّة الأمومة مرارة خيانة زوجها لها، وأنستها خيانة أختها، وأيقنت أنّ الله ألقى محبته في صدرها، هيَ الواقعة التي تحوّرت وتحوّلت إلى نعمة.

القصة السادسة

كان ولدًا شقيًا طائشاً منفلت العقال، جاء من قريته البعيدة الى المدينة يتسكع باحثاً عن هدف مبهم، يقضي نهاراته نائماً، ويحيل لياليه عربدة دون قيود، ويبدو أنّه تعرف على فتاة بائسة يائسة، وهي من ملّة أخرى، ويبدو أنّهما تحابا وانصهرا في علاقة محرّمة فحملت منه، وخوفاً من أهلها الذين أهدروا دمها هربت معه عند أهله.
وانفجرت الانتفاضة الثانية، وتبين أنّ هذا الشاب الأرعن واحدٌ من المشبوهين أمنياً، فلاحقه المنتفضون فهرب إلى أحضان أعدائه، فما كان من البنت التي وضعت ولدها إلّا أنْ تركته عند جدته وجدّه وأعمامه، وعادت إلى المدينة فتقبّلها أهلها شفقة عليها لكنّهم أرسلوها إلى أمريكا.
لم تستطع الجدّة المريضة من رعاية حفيدها، فحملوه إلى أحد مراكز الأطفال اللقطاء.
وبعد ثلاث وعشرين سنة عادت أمّه من أمريكا، وحثّت الخطى إلى بيت أهل طفلها، الذين أخبروها بأنّ له اسما آخر ونسبا آخر، وقد انقطعت أخباره عنهم، وكان في تلك المؤسسة، فحزمت الأمّ أمرها وراحت عند ولدها لتجده قد تخرّج من الجامعة، ولا يعرف قصّته أو حكاية أمّه وأبيه وجدّته. أرادت الأمّ اثبات نسب ابنها وإعادته إليها، والى أبيه الحقيقي عبر إعلانها له عن زواج عرفي وشهود. وجاءتني المرأة وحاولتُ

أن اسعى معها لترميم ما أفسده الماضي، لكنّي وقبل أن أتمم لها الأمر فوجئت بخبر صاعق وهو أنّ الشاب قد تلّقى رصاصة في الصدر أثر محاولته طعن جندي.

أخبرني صديق لي، أنّ هذا الشاب قضى عمره يبحث عن الماضي، ومع أنّه تلّقى الرعاية والتعليم في دار الإيواء، لكنّ ذلك لم يُنْهِ زَنّ أفكاره للبحث عن الماضي، كبقية أقرانه في هذه الدار، ويبدو أنّه أكثر من الدعاء، فاستجاب الله تعالى، وحضر الماضي على رجليْ أمّه التي لم تحمل معها حين غادرت مضطرة في الماضي إلا صورةً لملامحه الأولى.

كأنّ الماضي ناقض تصوّراته، لفَظَ حاضره ورفضه واشتاق للموت، فأراد أنْ ينكره، ولكن في مساحة الشهادة الطاهرة المعاكسة والمناقضة دائما للاحتلال والاحتلال..

القصّة السابعة

الجمرةُ على أشدها! ولا مَنْ يُطفِئ الوهج الّريان. حتى أنّ إمتاع الذات لا يُجدي. والفقر يضرب أطنابه، فثمّة ثلاث بنات بزغ نجمهنّ وكبر الكمثرى على صدورهنّ، ولا سبيل لتوفير ما ينبغي توفيره لهنّ.

كان بإمكان الأمّ أن تعمل، وتسدّ رمق الأفواه الفاغرة، لكنّها استكبرت وتمنّعت، وغفلت عن واقعها الثقيل، الذي تريدُ أن تزيحه بضربة عصا

سحرية. وأنّى لها ذلك!؟

شقّت باب بيتها لتُغري طالبي الزواج، فلديها من جمال الوجوه ما يسحر الألباب. وقد كان.

يأتي الخاطب، فتطلب الأمُّ مهرًا نقدياً فورياً عاجلاً غير آجل.... وتبالغ في الطلب!

فيدفع الخاطب المبلغ، ويبقى مع خطيبته، دون كتب كتاب أو توثيقٍ رسميّ للزواج العتيد.

ويأتي الخاطب الثاني، ويقترن بالعروس الثانية، ويدفع المهر العاجل.

وكذلك الخاطب الثالث! حتى أنّها، هي نفسها، لم تمانع من أن يخطبها أحد، وإن كان قد تنفّس كثيرًا في الحياة وغزاه الشيب... المهمّ أن يدفع "كاش"، وستبذل له ثمارها...كما بذلت بناتها لِمَن جاؤوا خاطبين.

ولسوء الحظّ فإنّ أحدهم قد افترع خطيبته! ولم يكن قد أعلى الجواب وكتب الكتاب، ولم يُقم حفلةً، ولم يُعلن عن يوم الزواج...وتبيّن أنّها حاملٌ منه!

فما كان من الأمّ إلّا أنْ حملت ابنتها إلى عيادة خاصة، وأجهضتها، وفكّت عُرى علاقتها بخطيبها... وطردته.

وكذلك فعلت مع الخاطب الثاني والثالث، بدعوى الحفاظ على عذريّة ابنتيها! عذريّة ابنتيها!

لكنهما مخطوبتان!؟

وتمرّ أسابيع قليلة، وتفتح الباب ثانية للشباب، فيأتون، ويدفعون، ويتمتّعون بعد أنْ يدفعوا عاجلاً وليس آجلاً، دون كتب كتاب، ثمّ

تُبعدهم بحجّة أنّهم أوغلوا وتوغّلوا في مفاتن بناتها!!!
وهكذا. خطبت كلّ واحدة أكثر من أربع مرّات، وتقلّبت مع الخاطب بين أحضان المتعة؛ لأنّه دفع، ولديه صكوك الاستباحة مع الأمان.
ولا زالت الأمّ تعقد خطبة لهذه وتلك، وتقبض منهم الأثمان، إلى أن طفح ريح البيت النتن، ولم تعد البلدةُ قادرة على أن تتحمل ما يجري من دعارة مغلّفة بالخطبة والمهر.
واتُفِقَ أنْ هجم شبانٌ وأحرقوا البيت على الأمّ وبناتها... فتفحّم البيت، ولم تنجُ سوى واحدةٍ، تبيّنن أنّها حامل...لكن أثر الحريق قد أتى على رحمها...وما فتئت مشوّهة وحيدة في بيت حماية!! ولا مِن سائل أو خاطب أو مجيب.

القصّة الثامنة

من المعلوم أنّ قوانين دولة الاحتلال، تنسحب على المواطنين الأصليين العرب والمسلمين، داخل الأراضي المحتلة ١٩٤٨، وعليه فيمنع على الرجال أن يقترنوا بأكثر من امرأة واحدة.
بعضهم قد يضطر ليتزوج بأخرى، إمّا لتأتي له بولد ذكر، أو لمتعة دنيوية، أو لمرض امرأته الأولى، فماذا يفعلون؟
وجدوا بعض سماسرة الأعراض، أو دلّهم البعض على نساءٍ يمتهنّ خطبة

العرائس للرجال، فطلبوا أن يجدن لهم بنات، من عائلات مستورة، يؤجرن أرحامهن، بحيث تحمل من الرجل، وعند وضع الجنين، يأخذه ويسجّله باسم زوجته الأولى...ثمّ يعيد من حَملت إلى أهلها.
واتّسعت الظاهرة، وراح العشرات يقترنون بصبايا، دون السنّ القانوني، غالباً، يتزوّجوهن بورقة خارجية عرفيّة، أيْ عقدٍ شفوي يرسم حروفه شيخ يشرعن مثل هذه الطقوس، ويساهم في خلق الحكاية هذه والحكايات المتشابهة، وبمهرٍ يقسّم بين البائعين والسمسار، وبلا مراسم سوى تجميل العروسة المرسلة إلى ذلك الرجل، الذي قد لا تعرف سوى اسمه الأوّل.
لكنّ واحدة من البنات اللواتي باعها أهلها، حملت في رحمها ولدًا لغيرها استطاعت أنْ تهرب من بيت مَنْ اشتراها، وتصل إلى مركز للشرطة، قبل مخاضها بأيّام...لكنّ أهلها قد أخذوها من الشرطة، بعد أن تعهّدوا بعدم التعرض لها.. ثمّ وجدوها جثةّ هامدة، في حقلٍ بعيد، وكأنّ شقيقها الذي لا يعلم في الأمر يريد أنْ يخفي فعلة أهله، بتطهير شرفهم، بقتلها، وما زال التحقيق مستمرًا.
وللقصة بقيّة؛ حيث تعود الواحدة بعد أن تضع وليدها، وتتركه خلفها باكية منهارة! لتقترن بعد حين بواحدٍ آخر، يعدها بالدلال وبذل المال... ويرغب بها، لأنّها مجرّبة، ورحمها خصب!
وتبيّن أنّ مثل هؤلاء البنات، وبضغط من أهاليهنّ، وحيث لم يبقَ إلّا تقاليد الحياة الجافّة ليعشنها، بعد السقطة الأول استمرأن الأمر، وفتحن باب الرزق لذويهنّ ليقوينَ على الحياة، حيث يخفن من محطة النكران

الأخيرة.

وعزاء الأهل كما يدّعون، أنهنّ يتزوّجن على كتاب الله وسنّة نبيّه!

ولهذا الحيّ الذي سكنته فتاتنا، حكاية فتاة أخرى لفتاةٍ عمرها أربعة عشر عاماً أو أقلّ، تقاسمت عائلتها والسمسارة المال، وألبسوها الأبيض وأرسلوها مع العريس الذي أكرم العائلة واشترى الفستان، ولا يعرفون أيّ شارع سيسلك في مشواره، أو في أيْ إتجاه منزله؟ ومن هم أهل زوجها؟ وهل لها حَماةً قوية مثل التي في تقاليدنا العربية، وابنة تساندها في الشر؟ والسيناريو الأهمّ، كيف ستستقبل الزوجة الأولى ضرّتها؟

شهر ما بين دخولها المنزل الجديد في التسوية وَدُخلتها، حتى أججمت الزوجة الأولى حياتها، وأدمتها من الضرب والقتها على الحاجز العسكري، ليتلقّفها بعض الشباب، وتبدأ متابعات الشرطة والمحاكم، لإثبات الزواج واثبات الطلاق الذي ألقاه زوجها عليها اثناء جرّ الزوجة الأولى لها، قبل رميها مدمّاة على الحاجز، وبعد عام أصبحت تعمل في مناطق قريبة محتلة من العام ١٩٤٨.

مشاهد تتكرر، ولا أحد يحرّك ساكناً، صمتٌ غريب، ومجزرة متعددة المقاصل تستمر وتستمر في أخذ الأرواح، تاركة خلفها أجساد تحيا من كسرات خبز مجمورة.

القصة التاسعة

لم يتبق أحدٌ في البيت سوى آخر العنقود؛ وهو الوليد الأصغر في الأسرة، التي يذهب كبيرها وابنه البكر إلى العمل داخل الخطّ الأخضر، ويمكثان طيلة الأسبوع هناك، ولا يعودان سوى ليلتين في البيت.

ويبدو أنّ الصغير الذي كان يقضي معظم وقته على الهاتف أو الأفلام، أحبّ المغامرات فاشترى عصيرًا طازجا، وأذاب فيه حبة منوم وأعطاه لزوجة أخيه، فكان ما كان، ومن شدّة ولعه بما يشاهد، قلّد الأفلام وصوّر فعلته فيها وعدّل عليها، وانزلقت زوجة أخيه تباعاً، وحملت منه! واعتقد الجميع أنّها حملت من زوجها الذي يغيب...ويعود منهكًا، وأنّ الله عوّض صبره وتعبه خيرًا!

الوحيدة التي كانت تعرف الحقيقة هي الجدّة التي شارفت على عامها التسعين، كانت ترى حفيدها الشقيّ يتسلل ليليًا إلى مخدع امرأة أخيه... لكنّ الجدّة خافت من الفضيحة.. فكتمت دموعها وحسرتها. لكنّها، وبعد أنْ ولدت الحامل بولدٍ لا يشبه أباه الشرعي، والجميع لم يعلّق لأنّ ملامح المواليد تتبدّل وتتغيّر مع مضي الأيّام، ندهت حفيدها الصغير، وحذّرته من أنْ يعيد الكرّة مع زوجة أخيه.. وإلّا فإنّها ستفضحه، فما كان من هذا الحفيد الطائش إلّا أن قام بقتل الطفل الرضيع بأن أطبق على رقبته حتى كسرها.. ثمّ توجّه إلى جدّته وشدّ عليها الخناق إلى أنْ

فاضت أنفاسها.. وماتت!
قاتلٌ زانٍ، وثمّة ضحيتان ظاهرتان، وضحيّة ثالثة آلت إلى زانية، فطلّقها زوجها، وهذا أضعف سلاح بيد الزوج، لكنّه الوحيد والأسرع، قبل أن يأخذه الفزع إلى قتلها.
الصغير الطائش، استمرّ في تقليد مشاهداته في الأفلام، ادّعى الجنون، وأحضر محامياً بمواصفات المحامي في فلم كان قد شاهده، يلعب على القانون، وأحضر الوثيقة بأنّه مجنون، وخرج المجنون بريئاً دون ملاحقة ونام في فراشه، حتى أنّ العائلة صدّقت جنونه، لكثرة ما قيل، حتى أنّ أخيه الذي صفعته الخيانة، صدّق جنونه، وكأنها المهرب، كي يطوي كل الأيّام التي مضت.
وعادت، لكنّ أهلها رفضوا استقبالها بعد فعلتها الشنعاء، ويقال أنّها ذهبت هناك في ذلك الشارع المضاء في المدينة الغريبة القريبة، تقف بملابسها الغريبة متبرجة، تنتظر من يصطحبها إلى شقته.
ويُقال أنّ الأمن في تلك الناحية، قد وفّر لها الحماية شرط أنْ تعمل معهم، ويبدو أنّها قبلت!
لم يلحظ أحد دموعها الساخنة سوى البحر القريب، من صرخاتها الضعيفة.

القصّة العاشرة

يبدو أنّ الانقسام بين الضفّة الغربية وقطاع غزة لم ينعكس سلبيًا على القضية الوطنية فحسب، بل طال مناحي الحياة بالمفهوم الشمولي، فالتواصل بين سكّان غزة وساكني الضفة مقطوع، وجعل الاحتلال لكلّ منهم عنواناً، يمنعه من الانتقال إلى عنوان الآخر، بل إنّ الاحتلال يحول دون أنْ يتنقّل الغزيّون إلى الضفة، حتى بات أحد أحلامهم، وكذلك الدخول إلى الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، حتّى أنّ قوات الاحتلال تتصيّد أبناء غزة المتواجدين في الضفة، وتحملهم إلى هناك، وتشدّد الإغلاق عليهم.
إنّه الحصار، وإنّه الإغلاق، وإنّه الاختناق.
واتفق أنّ تزوّج رجل عامل من امرأة من الضفة جاء من غزة إلى الضفة، قبل ثلاثين عاماً، وكان ثمرة زواجهما خمسة أولاد. ويبدو أنّ بعض الاختلاف وقع بينها، فما كان من الرجل إلّا أن حمل أولاده، وتوجّه إلى معبر بيت حانون، شمال قطاع غزة، وسلّم نفسه لقوّات الاحتلال، التي قادته إلى حيث يجب أن يكون هو وأولاده، في القطاع!
ومن الطبيعي أنّ الأمّ، التي من الضفّة لا تستطيع أن تصل غزة!
ممنوع!
فماذا تفعل؟

جنّ جنونها.. وتشقق قلبها على أولادها، ولم تُجْدِ كلّ توسلاتها لِأَن تعانق صغارها، كما أنّ زوجها لم يطلّقها.

ومرّت السنوات، واليوم؛ يكون قد مرّ على الحادثة أكثر من خمسة عشر عاماً، هل تصدّقون!

وأخيرًا، بعد أن كَبر الصغار، استطاعوا أن يجبروا أباهم على أن يسافروا إلى القاهرة، وهناك تحضر أمّهم ليعانقوها بعد خمسة عشر عامًا.

وقد كان، لكنّ المرأة التي حولتها الأيّام من امرأة ثلاثينية إلى خمسينية، جبل قلبها بالمرار حتى ضَعُف، فبعد انْ هبطت من الطائرة، وخرجت من بوابة المطار، رأت أولادها يفتحون صدورهم لها.. فلم يحتمل قلبها الضعيف زيارة الفرح، من شدّة غيابه، حيث كان حضوره ثقيلاً، فوقعت مغشيًا عليها وفارقت الحياة.

وعلق جثمانها معهم، كما علقوا في غيابها وعلقت في غيابهم فيما مضى، حيث يمنع دفنها في القطاع ولا يمكن إعادتها للضفّة، ولا يمكن دفنها في القاهرة.

والمؤسف في الأمر أنّ أحدًا قد اقترح عليهم أن يبيعوا جثمانها لطلبة كلية الطب... فيكون لهم مبلغ معقول يغطّي تكاليف سفرهم، ويكون لها الأجر عند الله تعالى، أليس التشريح مفيدٌ للمؤمنين!

استدراك؛ ما لم يقله الراوي أنّ الأولاد تمكنّوا من السفر إلى القاهرة، لأن أباهم قد قضى في القصف الأخير الذي طال بيته، في الحرب الأخيرة، وكان يمانع من أن يتواصل أولاده مع أمّهم الضفّاوية.

القصة الحادية عشرة

فتاةٌ بسيطة كانت في قريتها البعيدة قليلاً عن تجمّع المدينة، تعيش في تجمّع عائلتها المستقلّ، حيث لا تريد العائلة أن تنفّك عن صورة القبيلة الأصليّة، ومثل كل سكان الأرض اجتاحت قريتها التكنولوجيا، وظلّت تُقّلب كل ما يتاح، وتبني بعض الأحلام مع شاب غريب قد ينقلها إلى أسلوب حياة مختلف، وأتت فرصتها بالصدفة، وبدأت المحادثات الهادئة إلى أنْ طاوعت نداءه برؤيتها، وكان، ولكنّ مشوارها الذي اعتقدت أنّه هادئ وقصير، لم يكن كذلك.

أخذها بعيدًا قليلاً، ولأنّه كان موعدها الأوّل، لم تحتمل سذاجة قلبها، وانزلق قلبها حتى أزلّها الشيطان، ووقعت في المحظور.

من شدّة ارتباكها لم تستطع أنْ تخفي خوفها، ولم تستطع العودة لبيتها وأن تمثّل الحياة الطبيعية، لأنّها لم تعتد الخدش في صرامة بيئتها، فكيف حين أخذها المدّ بعيدًا وعاد بها للقرية.

عادت من نصف الطريق إلى مركز الشرطة، وهي تتخيّل كيف قُتلت فتاة قبلها وربّما أكثر، ثمّ أُودعت في مركز الحماية، وتدحرجت الحكاية حتى سُجن الشاب، وتحوّلت النزوة إلى شبح يطارده ويهدده بدخول السجن للتغرير بفتاة واغتصابها.

وكالعادة هناك النشيطون يتولّون ترقيع الحكايات بالجاهات ودفع الأموال، إلى أنْ كان، وقد قيل لأهلها أنّها خرجت قليلا وعادت كما كانت لكم، مجرد أحاديث جمعتهما، حتى أنّ الشاب لم يقترب من ظلّها ولم يتقاسما الأنفاس.

كُبّل احتقان العائلة بترنيمة الشرف المفرودة على طاولة العطوة، وتزوّجا دون انتقال ودخول، وبدأت التحضيرات للزفاف.

دائماً هناك المتطوّع الذي يفشي الأسرار حبّاً كما يدّعي للعائلة، أو ربّما يكون في الحكاية من يحب نسج الشر في وسطها أو زاويتها، أو ربّما فردٌ في العائلة يبقى طنيناً في قلبه يبحث أكثر وأكثر عن شيءٍ مخفيْ، لأنّ إيقاع الشرف لا يخمد، فعرف اخوتها أنّ بكارتها غادرت، وأنّهم مغبونون في التصالح على شرف العائلة، ورصدوا الطريق، وأمطروهما بالرصاص، انتصارًا لشرف العائلة، وماتا وأمّها كانت معها، ولم يحزنوا كثيرًا على أمّها التي هيَ أمّهما، فلو كانت أكثر حرصاً لما حصل الذي حصل، وما كان ما كان.

وأخذت العائلة جثمان الأمّ الى بلدتها، ودُفنت وسط طقوس صامتة، ودعوات مكبوتة من نساءٍ أخريات، يعلمن وبناتهنّ نهاية هذه الطريق التي بلا رحمة.

أمّا العروس، فلا شأنَ لهم بها، دُفنت بجانب من غامرت معه، وأصبحت منسية.

أمّا القتلة، أُسقط عنهم الحق الشخصي، فوالدها والدهم، وبقي الحق العام بركاكته التي لا تلجم مفهوم تربع الذكور على عرش الشرف ومسؤوليتهم

عن التاج، حيث يبقى المثل القائل" تاج راسك أبوك وأخوتك"؛ سيفاً يستخدم في الباطل أكثر من الحق.

القصّة الثانية عشرة

فتاة عشرينية من عائلة متوسطة الحال، في بدايةِ حياتها المهنية بعد التخرج، تُواكب موضة الملابس وحكايات أترابها؛ منهنّ المخطوبات، ومنهنّ من تزوّجن حديثاً، ومنهنّ العزباوات مثلها، بعد أن خرجت من علاقة خِطبة فاشلة حديثاً.

تقرأ أحياناً الفنجان في جلسة "زهزهة" مع صديقاتها، وتتابع الأبراج، حتى أصابها الهوس من تلاحق الأيام وبقاءها وحيدة دون شريك، حتى حصل أخيرًا، وخطبت من شاب وسيم، حاله الاجتماعي كحالها، وبعد فترة بدأ يترنّح في تعاطيه معها، إلى أنْ فاجأها كالأوّل وأنهى خطبته منها. عادت لهوس الخرافات، ووقف الحال إلى السحر والشعوذة، إلى أن بدأت بالبحث عن "شيوخ" لعلاجها وفكّ كربها، وبدأت ترصد ما ترصد من راتبها القليل لهم، زارت "الشيخ" الأول وطلب منها التعاطي مع قراءاته، والاحتفاظ بأوراق لا يجب أن تفتحها كي لا يزول مفعولها، ورأت أنّ قدرها لم يستجب سريعا لما فعله هذا "الشيخ"، فبحثت

عن آخر؛ وهو الذي أخبرها أنّه سيأتيها عريس بعد أيّام، وهو المنشود، وعليها أنْ تقبله.
وأتى عريس، صدفةٌ أم قدر؟ وقبلت على عجل، لأنّها كانت بانتظاره، ومن هنا بدأ مشوارها الذي لا ينتهي مع المشايخ، إن غضِب خطيبها أو إنْ أرادت جذبه أكثر، وتزوّجت، وظهر المخفي من زواج أصرّت اتمامه دون استعلام كافي عن العريس وأهله، حيث أنّها كانت يتيمة الأب ولها أمّ أرهقتها الأيّام، ولها اخوان أصغر منها، لم يستطيعا مقاومة انجرافها السريع.
ونعود لنحكي عن عروسنا التي أصبحت تواجه زوجها مخمورًا كلّ يوم، ولأنّه أصبح صاحب بيت، نقل جزء من سهراته إليه، وسارعت كعادتها إلى الشيخ، وبدأت تعالج الأمور على طريقة شيخها، وبقيت كرة النار تتدحرج بينهما ذهاباً إياباً، حتى علم أهلها، فأخبرهم عن تمتماتها، حتى أنّه انقلب حاله من أفعالها وسحرها، وهو لم يكن منحرفاً إلا بعد زواجه منها.
بدأت عائلتها تصدّق ما قاله عنها، حتى أنّها اعتقدت أنّها "ملبوسه من الجنّ"، وسألت أمّها المقرّبين عن شيخٍ ليستقيم حالها، أخذوها، وقرأ عليها شيخ جديد، وأعطاهم وصفة لجلدها بالأحزمة والعصيّ سبعة أيّام بالتزامن مع قراءات مسجلّة من القرآن الكريم، وتناوب الأخوان عليها، مع دعوات أمّها المتيقنّة بنجاعة القرآن لإبرائها من حالة التلبس، وفي اليوم الرابع وقعت دون حراك، ولم نتأكد إنْ ماتت وحدها أم الجنيّ معها أيضاً!؟ وقيل في تقرير التشريح الطبي، إنّ انفصال الجلد عن العظم

من الجَلْد سمح للهواء بالتسلل بينهما، لعلّه برّد ألمها، أو فتح طريقاً لخروج الجنّ! لكنّها ماتت، وبفعل الجهل والشعوذة السوداء.
أمّا الأمر الآخر المؤسف فهو عقوبة الشيخ الدّجال، لا تتجاوز السجن لمدّة أسبوع.

القصّة الثالث عشرة

"كبير العيلة" كان أبوها، شديد صارم، تحوم حوله العائلة كأنّه مصباحها، حتى أنّ صوته كان أجشاً، يرعد سامعيه أكثر ما يطمئنهم، أغلب وقته منشغل، ولا يتكلّم كثيرًا كعادة أمثاله.
إلى جانب كونه صاحب تجارة وأعيان، كان لديه جانب مظلم، يتهامس الناس قوله همساً فقط، وإحدى بناته الثلاث كانت مخطوبة لأحد معارفه وبينهم تجارة مشتركة ظاهرة، ومنها باطنة في تجارة السلاح.
فتاتنا المخطوبة في الحكاية هنا، كانت هادئة متعلّمة إلى حدّ ما، وتنّظم أفكارها المستقبلية نحو بيتها المنتظر، مثل كلّ نظيراتها.
لكنّ محظور التجارة السوداء وقع، وقُتل خطيبها، ولم يخبرها أحدٌ بالتفاصيل، لا كيف ولا أين ولا متى على وجه التحديد قُتل؟ وتَجَهُم وجه والدها المعتاد، لَجم أسئلتها، وحضور أمّها الضعيف لم يسعفها.
في لحظة غفلة من والدها سمعت تمتمته مع أحد مساعديه، واكتشفت؛

أنّه قتله لأنّه خان، خان! ما مفهوم خان؟ وكيف يقبل تزّمل ابنته قبل زفافها؟ وكيف ستنظر إلى كل ما خبّأت في حقائب منفصلة فترة الخطوبة تحضيرًا لحياتها الجديدة.

خرج غضبها من مخبئه، وقرّرت التمرد على ذاتها التي حبستها مصالح السوق السوداء، تواصلت مع شقيق خطيبها، وقرّرا الانتقام سويًا، واستجمعت قواها لتخرج معه، وتلطخ شرف العائلة الكاذب، الذي يتغذى على دمّ الناس.

انتهى بها المطاف "دخيلة" عند حَمولة كبيرة، والشاب الذي هربت معه سُجن بنفوذ والدها، عامٌ كامل ولم تجدِ كلّ الضغوط طريقاً لِلجم غضب وقرار والدها بقتلها، حتى أنهك الزمن هذه القصّة، وبلغت "العطوات ذروتها"، واختلفت بعض ظروف تجارة السوق السوداء، وتدّخل بعض أفراد هذه السّوق من الباطن، وأُخذت الضمانات وعادت، عادت بانتصار طقوس القبيلة والذكورة، وليست عودة عادية، وعليها المبيت في ركنٍ معزول من زاوية المنزل، لا تأكل على سفرتهم، ولا تتشارك طقوس العائلة، وايقاع الوالد المهيمن لازال مسيطرًا، وعليها أنْ تنتظر من يختار زوجاً لها، من محيطه، ليخيط ثوب شرفه، دون سؤالها!

القصة الرابع عشرة

فتاة متعلمة، من عائلة ذات وزن اجتماعي، كان والدها يعمل في التجارة قبل أن يتوفى وهي في سنتها الجامعية الثانية، وكان لوالدها زوجتين تعيشان في ذات البيت الكبير، ولا أحد يعترض على أيْ شيء، فالمال كان يفرض نظام الحياة الذي كان يريده هذا الرجل الحازم قوي الشخصية.

كانت الفتاة الصغرى، إلى جانب عدد من الأخوات والأخوة الأشقاء والأخوة لأب، وعندما توفيَ والدها، اعتبرت أنّ حارس نظام حياتها غاب إلى الأبد، وبدأت تقلق ممّا هو آت، وخاصة أنّها تعلم أنّ هدوء الجميع في ظل تركة كبيرة، لا يُضمَن استمراره.

أكملت دراستها واستمرّ أخواها الذّكور في إدارة التجارة، ويدفعان مصاريف الجامعة والبيت ومصروفها الشهري، ولا أحد يتحدّث عمّا ترك الوالد، تزوّجت اختاها وكان أخواها متزوجيْن، وبقيت في البيت مع أمّها وزوجة الأبّ اللتيْن تخدمهما، وأصبحت تعمل بعد ذلك بالوظيفة الجيدة التي حصلت عليها، وأخذت تتطوّر فيها، وفي كلّ يومٍ تعود لبيت العائلة.

فرض أخواها مواصفات معقدة حول عريسها المستقبلي، وتعقيدات كانت تظهر كلّما طرق عريس جديد باب البيت، حتى اختفى العرسان، وكانت تعلم جيدًا أنّ السبب هو الميراث، ولا يريدون شركاء جدد،

وحصتها أصلا لا زالت في مجموع التركة، وبالنهاية بالنسبة لأخوتها الذكور ستموت، مثل أمّها وزوجة أبيها أيضاً، وكلّ ما لديهنّ يرجع لهم ميراثاً، رغم أنّه أصلاً لم يوّزع! وكأنّ القبلية بشكلها القديم وما وصلنا عن الجاهلية من ميراث الرجال للنساء مع بقية التركة لم ينتهِ، وضاعت ملامحه في الحياة المدنية.

شارفت الفتاة على الأربعين، حتى علم أحد أخوتها أنّ أمّهما تنازلت لها عن حصتها في التركة، وباعتها ما ورثت عن عائلتها أيضاً، وبدأت التهديدات، ووجوه الشر المخفية ظهرت.

والغريب أنّ إحدى اخواتها المتزوجات تحالفت مع الأخوة الذكور، ويبدو أنّها اتّفقت معهم على تسوية مالية مقطوعة بخصوص حصتها من التركة، واستمرّت الفتاة في التفكير؛ لتجد مخرجًا من الضغط المستمر عليها لتتنازل عمّا تملك لأخوتها وخاصة الإضافة الجديدة لها من أمّها، فلجأت لرجل ذي سطوة عائلية، ويشبه نفوذه العصابات، فعرض عليها الزواج مقابل الحماية، لأنّها ستصبح عَرْضَه، ووافقت مع أنّها ستكون زوجة ثانية، وكان ذلك الزواج، وهي قد أحبّت فكرة الزواج أيضاً، ولم تفصح عن ذلك.
علم أخواها، وأصابهما الجنون، وفي خضمّ اقتحامهما لعمل زوجها، استلّ أحدهما السلاح لقتل اخته التي كانت متواجدة مع زوجها، وحصل اشتباك وإطلاق نار متبادل فأصيب الأخ الذي نجا فيما بعد،

وقُتلت هي في حضن أخيها المصاب، لأنّه نجا بدرع جسدها الذي تلّقى الطلقة القاتلة، وكانت هي إحدى الشهيدات في حرب التركات، غابت شهيدتنا عن الدنيا وتركت لهم زوجها وريثاً في ربع التركة!

القصة الخامس عشرة

دون سن الزواج القانوني، الذي هو مخالف لقواعد القانون بطبيعته، ويحتاج لإعادة هندسة قانونية اجتماعية، عندما قرّر أبوها أنْ يجعلها زوجة وهي طفلة، ويقدّمها لمن يشبهه "صغيرة وبتربيها على إيديك" وعيون ذلك الرجل الذي اعتاد ابتياع الصغيرات تلمع.
وهذا الزواج إنْ كان يصلح أنْ يسمى زواجاً يكشف المستور وينتهك القانون، والطفلةُ هناك؛ كانت في مواجهة الأب، الذي لم يتمتع في محاولته الأولى بتزويجها بفرصته المالية، وهذا الفكر المشحون بالطمع المالي والمتستر خلف مفهوم السترة، لم يمنعه من الزجّ بها ثانية في هذا المسار الشائك. عندما تناولتُ هذا الملف لم أستطع إيقاف الصور في مخيلتي؛ هل يا ترى رجالاً يحبون الاستعراض أمام صغيرات لم تعرف أحدًا قبلهم فتنبهر؟
كيف تقبّلت قلوبهنّ ومخيلتهنّ وحصيلة معلوماتهنّ، التي لم تتجاوز لعب الحجلة هذا الانبهار، كيف أُخْبِرْنَ حول القادم؟!

هذا الأب الذي لم ييأس من المحاولة، مرة أخرى سريعاً، ليزوّجها عُرفياً شفوياً مروّجًا الكذب على نفسه قبل الآخرين، بأنّه يطبق شريعة الإسلام على طريقة السالفين والتابعين ومن تبعوهم إلى يوم الدين. هناك رحلت إلى جانبنا الفلسطيني المغتصب ١٩٤٨، طفلة اغتصبت طفولتها، تذهب إلى جزئنا الذي يشبهها، تذهب أشهرا وتعود حُبلى وحيدة، لم تجد غير والدة مريضة نفسيًا وظروفاً أحرقت أو غيّبت كل من حولها.

وتُودَع في بيت كبير لإيواءِ أمثالها، في أواخر المساحات الزمنية للانتفاضة الثانية، حيث كل الأماكن تعمّها الفوضى أو لم تستيقظ من آثار الفوضى. وجزءٌ من ساكنيها تجّار حرب، ومنهم من يعلم ما يعمل، ومنهم من يتجاهل، ومنهم من يهمل، وكلّهم في النتيجة سيّان.

وباغتها مخاضٌ وهي لم تبلغ السادسة عشرة، وحيدة تحت الحراسة، ولا أحد يُصدّق أنّها متزوجة، كلهم يتساءلون، مع من كانت؟ وماذا فعلت؟ ولا يتحدثون حولها ولا يناقشون ماذا يمكن أن يكون في صدرها الصغير! حتّى أنّ مشاعر خوفها الظاهرة في عينيْها تجاهلوها على اتفاق.

ويخرج طفلٌ من رحم من لم تعلم أنّها سُجلت "أم طفل غير شرعي" وطفل اللحظات في بطاقة ميلاده موسومة باسم: .....اسم وهمي..... – طفل غير شرعي-.

عيونٌ ذابلة متعبة وهمسات الترجي المرهقة لرؤية طفلها، - إن رأته ستتعلّق به- هذا سند الرفض المطلق من قبلهم، مَن أشرفوا على الميلاد وقالوا: ستخرجين وهو لا يعرفك ولن تذكريه.

تحجّر غريب في المواقف، وأسئلة توجّه لطفلة، وكلّهم يعلمون أنّها لا

تستطيع أن تجيب، وليس لديها أي حلّ!

تصرخ فقط وتقول أنا متزوجة!

أسئلة مضادة:

ممن؟

ما اسمه؟

أين يسكن؟

أحضريه إن استطعت....

وتقول: أنا هربت، والخوف يداهمها إن فكّرت بأنّه آت.

سنوات مضت، وأزواج جدد مرّوا عليها، وعادت في أوائل عشرينياتها تبحث على غير هدى عن طفلها، إلى أنْ أتتني، تتحدث بِجُمل مكسّرة، مشاعر أسرع من الكلمات، وتَعثّر وتأتأة من زحام مشاعرها المضطربة.

تستطرد: أحاول رسم صورة لوليدي وأفشل، لأنّهم لم يسمحوا لي أن أراه "ساعديني"! اجتياح لأمومتي، وميزان القضاء يُعدِّل ميزان قلبي، وشعرت للحظة بأنّ العدالة قد تترنّح.

عندما أرادت أن تراه دون أن تكون أمّاً دائمة ملازمة، كما تحلم جميع الأمهات، وكلماتها المفروط عقد أمومتها غصباً "لا أستطيع أن أكون حيث يكون، فقط.. أراه".

لأنّها لا زالت حبيسة واقعها المادي والاجتماعي، ويرتبون شؤونها لزوج جديد، يلعب دور المعطف الممزّق في سنة، فصلها واحد، هو الشتاء القارس، هذا هو إدمان السترة بمفهومها المنحرف.

رحلتنا القانونية بدأت، أزواجٌ لم يستقروا في عقود بشكل صحيح،

وطلاقات لم تتبعها في التسلسل، ليستقرّ ميزان الحلّ والحرمة، إلى أن جاءت لحظتها بعد عام من جهود قانونية جماعية مضنية، لتحمل حُكماً يثبت بعد ست سنوات أنّها لم تكن زانية ولا طفلها ابن رذيلة، ولكنّ الحكم لن يزيل وصمتها بأثر رجعي ولن يعيد طفلها.

حاولتُ البحث عن الطفل، بتحسسّ حَذِر، أين يمكن أن يكون؟

لم أتخيل أن هذا الطفل، أمّه الحاضنة تركتْ استجداءها على طاولة مكتبي لتغيير اسمه الوهمي، ليطابق اسم عائلته الحاضنة، خوفاً من عار يلاحقه في عيون الكبار، الذين لم يعرفوا وزن كلام تفوّهوا به لصغارهم. هي نفوسٌ مريضة تحدثت مع ذواتها عن نتيجة خطيئة الكبار للصغار "طفل ابن حرام"، وأسهبت دون أن تصف الجريمة في تفاصيل البشاعة وجريان دم الذبيحة باستعمال سكينهم المثلومة "أباً وزوجاً ومن أشرفوا على الميلاد الحزين ومن نسجوا الحكايات".

إنّ استرجاعي لِلّحظات التي عرفت فيها الرابط بين هاتين السيدتين مجبولة بالقشعريرة، كيف تحوّل ابن الحرام الى ابن حلال، وكيف ارتعدت الحاضنة التي لا تنجب، من فقدان طفلها المحضون لديها، مع الأمل في طفلٍ أهداها إيّاه الحرمان.

واستمرت أمّه بالاستجداء لرؤيته دون إخباره من هيَ، حتى أنَّها ساومت نفسها على القبول برؤية صورته، ثمّ غابت، لعلّ الزوج الجديد في رحلتها الجديدة يجلب لها الراحة المستحيلة.

ولم يلتقيا!!

لا أعلم إنْ كان القدر في طياته يحمل أحداثاً جديدة، وكيف ستكون

الحكاية بعد سنين، لكنَّ عدالة الله تعالى التي تجلّت بظهور أمّه لمدة عام، ليتغير حال الطفل من ابن حرام الى ابن حلال، كفيلة أنْ تنبئنا بأنّ الله الحكيم يُمهل الى حين، ولا يهمل سبحانه وتعالى.

القصة السادس عشرة

الفتاة الجامعية الريفية بصورتها المُثلى، وغشاء بكارة أفكارها قبل جسدها، جزءٌ من هويتها. هذه الصورة التي تُقدَّم غذاءً لعقولنا وحلوى الضيافة للغرباء، مشطوب من سطورها أو حتى من الحواشي، كل ما يكتنف الإنسانية من خطأ وخطيئة، وكلمة - يا إلهي – تستعمل في أدّق مواقعها حين يقع المحظور، في ظلّ هذا الوجود للهيكل الفكري الملائكي المفترض.

داخل إطار الصورة ذاتها أمّهات ريفيات حذرات في تربية بناتّهن إلى حد التكتم أحياناً من شدة الرغبة في احترام ومداراة منطق العيب، وكل ما دار في فلك الرجال الغرباء والأقارب غير المحارم، هنا يخلط الدّين مع العادة، ويتزاوجان اجتماعياً إلى حد الاندماج وغياب الملامح المستقلة لكل واقع.

متى يجب أن ندرك أنّ "خط الأدب" لا يعتدي على خط التفقّه الديني والاجتماعي؟ ومتى علينا أن نقرر اللحظة التي سنزاوج فيها الدين

والعادات الاجتماعية بشكل صحيح؟
إنّ تربيتنا التي اعتمدت على تصوير الرجل "بعبعاً" سيخطف بكارتنا، لم تُمكّن الكثيرات من التحوّل الصحيح لحظة زفافهن، حيث لم يسبقها تمهيدًا، أنّه يوجد مساحات للحلال في غير المحظور، لتُفْهَم اللّغة المضادّة غير التي اعتادت ترنيمها الأمهات والعمّات والخالات، لتسليم مطلق للمشاعر والجسد في لحظة الاشتعال.
نعود لنخبر عن فتاتنا الريفية الجامعية التي أغوى طبيبٌ أفكارها بزواجٍ عرفي، انتقلت فيها من أحلامٍ حُبلى بالورود، إلى مواجهة رَحمها الذي استقبل أمومتها على عجالة في هذه العلاقة، في ظلّ رجل لم يتوقع من رجولته أن تخونه فتزِّل حَملاً. وفي العلن انتفض متنصلاً من كل ما مضى، لم يخجل من مواجهة ماضيه الناعم معها، وكيف أقنعها وهي تعلو على قمتها الاجتماعية الطبيعية، أن تبيع الهدوء لتستبدله بالخوف في هذه العلاقة، حينها فتتّها! لتقف مواجهةً لِنفْسها، وتُسائِل نفسها كيف انطلق عنانَها الروحي والجسدي وعنان الأحلام إليه دون شك في القادم.
كيف تحوّلت فتاتنا الملفوفة بكل الفكر الريفي المحافظ، الذي اسْتَرجع حين الصدمة صورة العائلة ومآلها، بعد ما آلت إليه الأحوال، وما بعد التخلّي والتنصل، وكيف أُودعت في مركز حماية، الذي كانت تسمع عنه حكايات نساء أخريات، أصبحت منهنّ اليوم، أو كانت قد رأت صدفة اسمه على المبنى من بعيد، أو شاهدته في تقارير الأخبار.

إنّ مَن غامرت لأجله ووهبته استقرار علانيتْها، سالكة طريق السّر لأجله، وقفت مواجهةً له ولعائلتها في يوم لم تتوقع حتى في حلقات دراما، قد تكون تابعتها، ثمّ قطع ذهولها هدهدة أمّها باكية في قلب المحكمة باكيةً تقول: "ربيتك صغيرة وتمنيتك كبيرة وأزفك عروس"، في هذا الموقف وقفت تحت حراسة الجهات الرسمية مِمّن أحبوها وممّن أحبّت وغامرت معه إلى طريقه دون استعلام، نحيب رجالها الحارسين لشرف العائلة في قلب المحكمة على ابنة فقدوها حيّة، ولا يشيحون أفكارهم عن كيفية صياغة قصة لعودتهم من دونها من حيث أتوا، وكيف سيستبدلون دموعهم بابتسامات المباهاة بابنتهم المؤدبة "اخت الرجال".
زوج- زواج عرفي- ووالد زوج متعنتّان واتّهام لها بالرذيلة – وكأنّه لا رذيلة تمسّ الرجال! - كان ضبّت حالها-، إنّ الذي باعت هدوءها من أجله هجم على بكارتها التي احتفظت بها كل سنين العمر لتقدّمها له في لحظة ضعف، ولحظات الضعف ليس لها قوانين ولا تُدرس عقباها، صرخ مزلزلاً ناثرًا كل الذكريات بفوضى بالعلن: لم تكن بِكْرًا وكانت مع رجل أو ربما رجال قبلي!!! استباح كل المساحات بفوضى ثور اسباني هائج يُقدَم في استعراض فقط ليثور بلا هدف.
وتعود أمّها تهدهد باكية تُغَنِّي ما تمنّت من زفاف أبيض اجتماعياً ببياض أفكارها عن بكارة الأفكار والجسد.
نَقود التوثيق لزواجٍ قانونيٍ بحقوق ضامنة لأيّامها القادمة، بعد واقع التخلّي العائلي، وإعلامها أنْ لا تعود ذاكرتها لتطلبهم، يتبعه طلاق ووحامٌ

يتيم حيث لا وجود لنساء العائلة اللواتي يخفن على ظهور علامات الوحام بطفل الجميع القادم، ولا تخيّل لاقتسام اللحظات معه، ولا تجهيز لميلاد، بملابس شتاء أو صيف بعد احتساب موعد الولادة، حيث التمنّي ألّا يأتي هذا الموعد، وتأتي الولادة اليتيمة مع مخاضٍ مشؤوم خالٍ من الحلوى وذبح العقيقة.

لكنّ المستقبل جاء مسرعاً وكأنّه ابتلع بعضه، وحضر وكسر الخالقُ وحدَتها بأخذ رضيعها إليه، لتعود وحيدةً كما خرجت من بيت والدها، مع حكاية صماء بكماء، لا أحد يتداولها ولا أحد يتحدث عنها، والمطلوب بداية جديدة! ليس لدي فكرة كيف ستكون صورة بدايتها الجديدة. لأنّي لا أعرف كيف يمكن أن تَعبر لمستقبلها آمنة بسلام بعد الذي كان وكان...وكان.

القصة السابع عشرة

ذلك اليوم الذي ولدت فيه هذه المرأة الأربعينية، كان ميلاد البنات بالريف، لا يقابل دائما بالبهجة والفرح! "وحَمْد الله" يستعمل في غير موضعه العاطفي، وإن تناولَ الحَمد الواضح لتقبّل المصيبة يزداد إنْ وُلدَت من ذوات إعاقة. وتَخيُّل الهمّ المستقبلي معها حجب عنهم تمنّيَ نور شمس العزيمة التي قد يؤتيها الله لأمثالها. حين أتتني منذ سنوات،

تمشي بثبات نحوي، مع أنّ خطواتها فيزيائياً لم تكن صحيحة، وحدّثتني؛ تطلب النصيحة لأنّي كنت المرأة الوحيدة القاضي في منطقتها. قالت اسمعيني أُمّاً وامرأة، ولم تَخَفْ من ردّة فعل سلبية قد تتلقاها من طرفي، كان ثبات صوتها عجيباً، وعيونها تترقرق بقوة لا بضعف. لا أعلم كيف يمكن للعيون أن تترقرق ولا تشعر بضعفها؟ إلى أن تحدّثت، وبدأتُ أكتشف بتتبع الإجابة عن سؤالي: لماذا أرى جمالا وقوة خلف التفاصيل الظاهرة؟ وتسهب؛ أنّها تجلس متقاضية عند قاضٍ رجلٍ زميلي في جلسات علنية وتحتاج لتوجيه. حاولتُ أن استوعب سريعاً قدومها وطلبها وثقتها المسبقة في رأيي دون أن يكون لها تجربة شخصية أو قضائية معي، تَحَسّست مواطن خَطرٍ إنْ تركتها ترحل دون سماعها. تُعبّر بقوة عن إنجازها بالتعليم وتقلّد الوظيفة، والفخر بعدم السماح بوصفها بالعالة، وأكثر من ذلك أنّها تميزت، وتُعبِّر مستطردة واصفة هدية الله الكبرى لها، بأنْ حظيت بالأمومة، تاركةً خلفها كل نظرات التساؤل حول مستقبل المعاقة في ماضيها، الذي صاغ وصقل العزيمة وليس العكس، ولم يكن مصدرًا لعار، وجب أن تتناساه، أمومة في طبيعة حالنا الاجتماعي غير متوقعة.

زوج أراد الاعتماد عليها مالياً، أعتقد أنّها كانت تدرك، عندما تَقرّب منها وهي عاملة بدخل محترم ومتمتعة بموقع محترم ما، حاول أن يخفي، ولكن قد تكون فكرة الأسرة وترّجي الله أن تحظى بأمومة في طبيعة إعاقتها الأقرب للشديدة منها للبسيطة، قد جرفتها وجعلت عينيْها تغضّان الطرف عن إدراكها لبنات سوء صدره ونواياه المشبوهة.

تَحدّثت عن أطفال وليس طفل مَنَّ الله تعالى عليها بهم، تحَدّثت كيف طوّعت جسدها غير الطيّع طبيعةً على خدمة نفسها وخدمتهم بلا مساعدة، وتحدّثت عن قوة عطائها في ترتيب يومهم والتخطيط لغدهم، ثمّ أطلقت عنان الحديث عن مخاوفها، التي لم أتوقع أنّها تمكنت من دراستها.

صمت رهيب خيّم على داخلي وخارجي، حين فَصّلت تفاصيل تجريحها وتعرية إعاقتها وتهكّمه عليها سكّيرًا، وتطاوله على كل التفاصيل المادية جسدًا وروحاً، لم تهتزّ لذاتها وقالت: أنا أريد أن أشتري الغد لبناتي، أريد أن أشتري غَدهم، إنْ سَرَدتُ تفاصيل التعدّي لأنتصرَ لنفسي اليوم، سأخسر غدهم بالتأكيد وسينسى المجتمع كل معاناتي، ويتذكرون أنّ والدهم قامر بأسرته ولم يحتمل اعتقاده أنّه أساء الاختيار لمعاقة لا تُمَتّعْ رجولته وشبابه، ومِن ثم يبدأ مشوار الوصمة التي ستلاحقهم، وهذه ليست خطتي، هذا يدمر ما خططت وما رسمته لمستقبلهم.

أريد نصيحة، أريد طريق، سألت؟

وتابعت وهي تعبر صمتي، أخاف أن يُكسر نوم أحدهم ليلاً فيشاهدوا عذاب ليلي معه سكّيرا، ويكتشفوا أني أكذب عليهم، ووالدهم له ثوبان، ثوب ليل وثوب نهار.

هكذا أنهت حديثها الذي كان من طرف واحد، دون جدال مني أو مقاطعة. موقف لم أتوقع زيارته لي يوماً وما تمنيت أنّي سُئلت، كل يومٍ

تعصف بي وزملائي عواصف نزاعات الأصحّاء على أمور جُلُّها بلا قيمة أو ذات وزن دون قيمة، ولا نتحسّس رائحة الحكمة التي غمرت لحظات استماعي في سكون الاستماع إليها.

لم أرَ نفسي يوماً في مساحة خارج القضاء أعمل في خطوط موازية للقضاء لردع ظلم تحت شعارها هي "أريد أن اشتري مستقبل أبنائي، أريد أن أشتري الغد".

إنّ خروجي الى مساحة خارج فضائي صعب، وتركي لها في فضائها صعب، رسمتُ خارطة لنصيحتها، أولى أبجديّاتها كيف أطمئنها أنّها ليست وحيدة، وكيف أرشدها إلى استعمال الميزان بين ذاتها وأبنائها الأغلى عليها من جانب آخر، وكيف يمكنها إيجاد طريقة لردع شرّ زوجها أو استنطاق خيره، وإن لم يكن، فاستنطاق خوفه لردعه.

مضى وقتٌ قصيرٌ حين وَجَدَتْ مفاتيحها المتوازنة واستعملت قليلاً من الشرّ في مكانه لردع شّره، وكل يوم يمضي هلال عمرها يقترب من بَدره لحصاد النور برؤيتهم جالسين على مقاعد الدنيا آمنين من الوصمة والعار، إنّ إيمانها بالله ثمّ بنفسها جعلها تتجمّل بهويّة الإعاقة، وتشيح مشاعر الشفقة عن كل من يقابلها.

أعتقد أنّها أرست لدي منطقاً جديدًا، حيث إنّ سلوك الإنسان لا تحكمه قواعد مطلقة، ويمكن إيجاد صياغات خلّاقة غير تقليدية للتعامل مع كل التوقعات التي سترورك في حياتك الشخصية والعملية، وأعتقد أنّها لفتت نظري إلى أهمية اللون الرمادي.

القصة الثامن عشرة

هِجرة عائلتها إلى الولايات المتحدة الامريكية أضافت لها ميّزة جديدة للراغبين بالزواج واللّحاق بركب الهجرة أو الثبات بدار الهجرة، إن كان مهاجرًا مثلهم، لأنّ التي تشتاق للعودة ستزعجُ برنامجه المكثّف في جمع المال أو تغيير النمط.

عائلات في المهجر تتوق لتزويج أبنائهنّ وبناتهنّ سريعاً داخل فلسطين، خوفاً من سحبهم أو سحبهنّ إلى عوالم المهجر بلا عودة، هم أخذوا عالمهم وسكنوا في داخل المهجر، ويريدون استقطاب من يشبهونهم إليه، ولكن أحياناً يخونهم التقييم لعضو العائلة الجديد.

فتاة أنهت الثانوية وحَلمت أنْ تَدْخل حقل التمريض، لكنّ رغبة العائلة في السترة من خلال إعادتها من أمريكا لتسكينها في ظل رَجلها الحامي غلبت رغبتها. أتساءل أحياناً كيف يُمكن أن ترى هذه العائلات ميزان الربح الاجتماعي في ظلّ من يلجأ للحصول على ميزة من خلال الزواج، ومن يريد الاتكّاء على ابنتهم للعبور للمستقبل، كيف يرونه قوياً؟

عقد قران، حلوى وفرح ومديح متبادل بين عائلتين لم يعرفا بعضهما قبل هذا الرابط الجديد، تفاعلات إنسانية غريبة أفرزت حرارة في المشاعر بشكل مفاجئ، حتى أنّها لم تختمر ولم تختبرها المواقف.

زفافٌ يتبعه مديح لقدم العروسة الجالبة للخير في سياقنا الشعبي،

والمفاجأة أنّ العريس لم يكن مستفهمًا بالشكل الكافي عن التفاصيل القانونية للحاقه بركب الهجرة، ليظهر لاحقاً تعثّر ورفض أمني اسرائيلي يوقف الحصول على تأشيرة سفر الخلاص لأمريكا.

عندما كان ينظر العريس إلى البعيد في أمريكا لم يتردد في إلزام نفسه بمهر مؤجل بالآلاف، وعندما زال السبب لهذا القبول، ظهر عجب السلوك في تركها حُبلى لوحدها في جزء شبه مهجور من المنزل، وعائلتها لا تعلم عن حالها وأحوالها، حيث تركَتَها مع "الحامي" وعادت إلى أمريكا. أستغربُ من قبول الأمهات والعائلات بإنزال هذا الدور من سلّم مسؤولياتها وإلقائه في ساحة القادم الجديد للعائلة دون متابعة أو تحقق، ويستَمّر الضغط على أيامها وأحلامها حتى تتنازل عن حقها المالي في عقد الزواج أو أي حقوق أخرى، حيث أنّه لم يأخذ منها ليعطي، كيف يعطي لمن انتظرها أن تبني له جسر العبور لتحسين واقعه المالي والاجتماعي في أمريكا، وفشلت؟!

هجرٌ، وحُبٌّ لأخرى، وتصريح بإرادته من الزواج بأخرى، يُعبّر في العلن، أضحى صوته واضحاً! لم يكترث لحملها الذي عاشته وحيدة في عائلتها الجديدة، ثمّ لم يَنْقضِ عام على كل الحوادث، لتعود أمّها دون رجال العائلة المنشغلين في أمريكا، لتتعثّر مع كل خمس أو عشر خطوات تشرحُ فيها تفاصيل الحكاية، لمن له علاقة أو ليس له علاقة، حيث أنّه مستباح نشر الحكايات عن كل ما حدث مع عروسنا.

ذلك الوقت الذي أتتني مع والدتها التي استمرت بالكلام، وابنتها صاحبة الحكاية صامتة، لم أستطع أن أستنطقها سوى بضع كلمات،

حالة تهشّم وتكسر داخلي، حيث لا تُرى إمكانية الترميم، تفاعل صفري مع طفلتها التي تحملها والدتها، تُشعرك دون كلام، أنّها ترفضها لأنّها تُذَّكرها بمن تريد أن تنسى.

رحلة قانونية مريرة للخلاص، كانت رغبتي باستقطاب المرحلة الصفرية القانونية بالعلاقة شديدة، لكي تنتهي الحكاية الأولى في حياتها، أدركتُ أنّه يجب وضع قدميها على نقطة انطلاق، لتتجاوز عَوْم التشخيص وعوم المواقف في التعاطي مع كلّ من حولها، ولحظة الصفر جاءتها، ورأيتُ انقلاب المواقف في تطرّفه، حيث أصبح لصوتها رنيناً وتبعه صدىً، وانتفضتْ في دفاعها عن طفلتها، وناضلت لتدفيع طليقها حقوق الطفلة بعد أن كانت في منطقة الإنكار.

كيف يمكن لزجاج نفسها المتناثر أن ينجذب مغناطيسيا ليلتحم بقوة؟

عندما انتفضت أوّل مرة أمامي بعد طلاقها وكانت في التاسعة عشر من عمرها، لم أستطع سريعاً المقارنة بين قبل وبعد، كنت مذهولة، ولم أقاطعها رغبةً مني في التمتع بجميل صُنْع الله فينا، في السرّ الذي وضعه في قلوبنا بِجَبرها، مشهد تحوِّل الانكسار لانتصار.

عرضتُ عليها حينَ خلعتُ ثوبي القضائي أنْ تعود لحُلمها في التمريض، لم تتردّد في إعادة تنظيم مستقبلها، وأنا، ما استطعتُ، دفعتُ باتجاهه، ليكون انضمامها لهذا الحقل التعليمي، وبدأ مشوار التحول بنجاح.

بعد مضي فترة على انطلاقها "ككلّ من يزورونا متقاضين يومياً ويذهبوا إلى سبيلهم بعد فصل الدعاوى" فاجأتني زائرة بعد ميلادي لابنتي، تحملُ هدية لطيفة مثل وضعها الجديد، صوتها صافٍ؛ بلا رجفة أو

نشاز ، تقاسمنا حديثاً اجتماعياً خفيفاً، لم أعد فيه قاضية وهي لم تعد متقاضية، ثمّ عادت ككل من وُلد أو سكن أمريكا الى أمريكا؛ لتعطي ذاتها فرصة جديدة أفضل وخاصة تعليمياً، واستطاعت أن تصل لتسوية مع طليقها حول حضانة ومسؤولية مشتركة بخصوص طفلتهما التي بقيت تلْجم كل كراهيتهما تجاه بعضهما بعد الانفصال، قد تكون تَعلَّمت أنْ تعطي لذاتها مساحة، ووضعت قوانين لآلية العطاء للآخرين.

هل ستكون جزءًا من نمط الهجرة التقليدي الذي شملها وألقى بها في موجه العالي وجعلها مطمعاً، وهل ستعطي ميزة الهجرة لطفلتها دون حذر؟

قصّة، انتهت بالنسبة إليّ، وهي بطلتها، تستكملها إلى أن يشاء الله، وبدأت أمّهما رحلة ابنتها الثانية قضائياً لدينا، ومع شخص آخر.

القصة التاسع عشرة

كنت اتابع برنامجاً خيرياً على شاشات التلفاز، واستوقفتني صورة سيدة وطفلها الذي في بداية خطواته على طريق المراهقة، حاولت التركيز وشدتني الوجوه لأنصت، بقيت صامتة مستمعة أراقبها تستجدي عطفاً ومساعدة لها ولطفلها المُتَبنّى، مشاعر من الغضب والحزن اجتاحتني، عودة ذهني إلى الوراء جعلتني استرجع كيف اعتقدنا قضاة ومرشدين

وموظفين في اللجنة التي أعطتها الطفل، أنّ واقعه الجديد سيوفر له حياة أفضل وأسرة بديلة حاضنة، لأنّه بلا أسرة، كيف اجتهدت هذه اللجنة لتنقله من واقع اللقيط إلى "واقع المحضون" وما يشمله من معانٍ اجتماعية ونفسية؟

أن أراه معوزًا على شاشات التلفاز ويُحتجّ به جزءًا من عوز الأم الحاضنة، حمل ثقيل على ضميري القضائي، وحمل ثقيل على أمومتي الطبيعية.

قبل ذلك بعام جاءتني سيدة خمسينية تطلب المساعدة بإعادة استصدار أوراق من ملف تبنّي خاص فيها، حيث توفي زوجها الوالد الحاضن وواجهت صعوبات قانونية وخاصة مع أهل زوجها، جاءتني مع رجل ثلاثينيّ تزوجته، ومعها طفلها الذي يجلس جانباً مع جهاز الكتروني يُلهيه.

أعترف! استوقفني المشهد قليلاً، حيث كان ضمور قدميها لا يمكن إخفاؤه وشباب الزوج الذي تتكئ عليه لا يمكن تجاهله، ولكن ركّزت ذهني على ماهية الأوراق المطلوبة وأهمية إعادة ترتيب ملف الطفل.

أعود إلى المشهد الحالي وأحاول تخيل كيف عاش هذا الطفل في كنف عائلةٍ؛ أمّ في بداية مرضها ووالدٍ مرض وتوفّاه الله؟ وما هي تفاصيل الخلافات على الميراث مع عائلة والده، التي وضعت على الطاولة دائماً موقفها من كون الولد لقيطاً ولا يرث، وأنّ الذي كان يربطهم به مات.

أحاول تخيّل تفاعلاته وهو مع زوج والدته الحاضنة، وحاولت رصد تفاعلاته حين طلبَت الأمّ أن تعطي زوجها صفة الحاضن الجديد، وهنا

قطعت الكلام بلطفٍ وطلبت من الصغير أن يجلس في غرفة أخرى، لعلّه يستمتع أكثر باللعب، حاولتُ قطع تفاعلاته ليذهب تركيزه لحدث آخر أو حاولت أن أقطع مشهد تفاعلاته كي لا أراها.

حديثٌ عليّ على شاشات التلفاز واستعطاف لقلوب الميسورين، ثم شرَدَ ذهني بأنّ هذا الطفل في بداية مشواره لتجعله الحاضنة عكّاز مرضها وكبرها، أين كنّا نحن من كل هذه التفاصيل؟

حاولت تفحّص ماذا بعد، أو ماذا سنفعل؟

وجوه اللجنة العابسة لحظات النقاش العاقر؛ أنذهب لطريق الاستدعاء للأم، ما مدى إمكانية سحب الطفل منها؟ أفكار ومداولات في كرّ وفر، وبالنهاية لم نستطع تجاوز فكرة كونها أمّاً حقيقية بالنسبة للطفل وهذا المنطلق لأيْ رؤية متعلقة بحالة الطفل.

بقيت أحلام السوء تراودني كلما تذكّرت، كيف نما في حقل الشوك؟ ماذا تشرّب؟ أي التفاصيل علقت في ذهنه؟ كم مساحة الاستقرار في عقله؟ كم مساحة أمنياتنا منذ تركناه تحت شعار المصلحة الفضلى عند عائلة بديلة، ماذا تبّقى من مساحات وردية أو زهرية اللون أو حتى بيْن بيْن، بعد حذف مساحة السواد، وأين مكث حزنه؟ هل تحدث عنه؟ هل أبكاه دون أن يدري أحد؟ هل هو قلق؟ هل يعيش صراع الإدراك أنّه لقيط وأنّ عليه مسؤولية قادمة، أو بدأت مبكرًا تجاه أمّه الحاضنة؟

اجتياح لعواصف نفسي، لم أستطع إيقافها ولا زلت، وأعتقد أنّ عليّ الاتّكال على الله تعالى، وترك الأيام تزودني بالأخبار، حيث قد نَعلق أحياناً في منطقة الوسط ونحتاج لله والله فقط.

هذه من القصص التي نهاياتها مفتوحة، قصص النهايات المجهولة التي عِلمها عند الله، ويجب أن يغمرني الاتّكال، ولكن جانبٌ منّي ينازعني، لماذا علقت الحلول؟ وهل عندما نَعْلَق يعني فشل؟ أم أنّه إيحاء بأنّ السكون واجبٌ أحياناً.

القصة العشرون

قد لا يُصدَّق أنّ في فلسطين من يسكن بجوار المدن الكبرى دون أوراق ثبوتية، خمس أو ست أو سبع أخوات كبيرات وصغيرات، يتحرّكن ويتعالجن إلى أن يتزوجن بشهادة ميلاد واحدة، عدّة أزواج للواحدة في الظاهر وزوجة واحدة في حياتهنّ، التي بلا ألوان قانونية، أمهات لا يُبلّغن عن ميلاد أطفالهنّ، حيث لا يُمكنهنّ تعبئة خانة الأمّ في شهادة ميلاد أطفالهن، منسيين بالتوارث.

طموحاتنا وآمال الآخرين تجاه أنفسهم وأولادهم تجري نحو المال والتعليم، وكل ما يدخل عادة ضمن حلقات النِّعم. لا نتخيّل عادة أنّ همّ إنسان قد يتركز على إقناعك أنّه موجود ولا يحمل بين كفيّه ما يثبت أنّه موجود، يجري مع مشاعره لإقناعك، لا يعلم من أين يبدأ، قد يصلح أن يحمل لقب رحّالة قاصدًا الآخرين متأملاً، أنْ يجد لديهم حلاً أو بوصلة.

هنّ مِمّن فقدن البوصلة، أدمنّ الشرح عن صلواتهن وأحلامهنّ بإثبات الوجود، هنّ من تعبت أيديهن من كثرة التلويح للفت نظر الجالسين والعابرين.

تأتيك وتقول أنا من ينادونها بهذا الاسم عند التعريف عن نفسها، وتنقلتُ وتزوجتُ وأنجبتُ على ذات الاسم وخمسة من أخواتي، والدي كان فرحا بأوّل ميلاد وعقد إرادته على تسجيل أختي الكبرى، ثم استقبلنا بعدها مواليد جدد بلا طقوس الاعتراف، ثمّ قادنا صغيرات غير مدركات حتى كبرنا وزُوِّجنا بعد أختي الكبرى، الواحدة تلو الأخرى على ذات شهادة الميلاد.

إنّ الناظر لما تحدّثْتُ به، ينتفض سطحيًا ليقول لدينا حالة تعدد أزواج، وللحقيقة عدّة وجوه، إنّ الفهم التفصيلي الدقيق يقف مدركًا أنّ تعدد الأزواج ورقياً قانونياً لم يَجرح ولم يُخلخل الحلّ والحرمة، وإنّما نتيجة التراخي وترك البنيّات للزمن على سجية الأيام تحت شعار – الله يسترها والله يفرجها-، مصطلحات أوجه استعمالها في غير مواقعها.

أواجه دوماً التّمسك والتذلّل إلى الله عند البعض عبر استخدامها تحت مظلة الفهم المنحرف، وأتساءل كيف يمكن تأمّل الاستجابة دون الأخذ بالسبب وانتهاج التراخي، وإنّ السيدة مريم عليها السلام المصطفاة على نساء العالمين أُمِرَت بجسدها الضعيف لحظة أنجبت المسيح، أنْ تَهزّ بجذع النخلة لتحصل على الرطب، ليس من باب التأكّد من قدرتها الجسدية ولا من باب عجز الله -جلّ وعلى أنْ يكون ذلك -عن وهبها الرطب دون هزّ جذع النخلة، إنّما ليهبنا عبرة الأخذ بالأسباب.

سريعة الكلام، كثيرة التفاصيل المتدافعة في القصص كانت، وتعبيرها غير المنقطع عن الأمنيات يحتاج إلى جَلَدٍ للإنصات، الحلم بحمل ورقة ثبوتية، تريد أن تصرخ وتقول أنا .....وأنا .....وأنا ..... زوجة لـ.....

وأم لـ..... و لـ..... و لـ ....، وتستطرد حتى تصعقنا بأنَّ أولادها الستّة بلا شهادات ميلاد وورثوا مضامين النّكرة في اللّغة.

شعرتُ بانتصار الفوضى بعد سماعها، لا تعلم مَن زوجُ مَن، ولا مَن ابن مَن! الأسهل أنْ تُشيح عنها بكلّ فوضاها، ولكنّ بريق الأمل المنتفض منها إليّ كَبّلني، خاطب الإنسان فيّ، خاطب أمومتي ولحظات المدرسة الأولى مع الأبناء التي تشتهيها مرتاحة، خاطب قلقي حين المرض أو مرض الصغار، وذكّرني بتناولي تأميني الصحي بيسر وسهولة، أين نحن من الله إن لم نرضخ بكل نفوذنا العقلي والقانوني والوظيفي لبذل الجهود، لإزالة أو التخفيف مما فعلته تفاصيل الجهل الاجتماعي ونكران الإناث المختبئ في التفاصيل.

هي وستة أبناء ذكور وإناث، استجمعنا، كفرق، قوانا القانونية والوظيفية، لاستخراج شهادتيْ ميلاد قانونية لها ولابنتها الكبرى، وصدر شهادات ميلاد فلسطينية منفردة دون توثيق على السجلات للباقين، لنهبهم بداية الوجود الحقيقي، لأنّ الطرف الاسرائيلي جزءٌ أساسي من هذا الحلّ القانوني، حيث سجلات وجودنا الإنساني الفلسطيني تحت رحمة شيطانه، لا نأخذ الحقّ منه إلا بغلبة الإيمان أو بالحيلة، والخيار الثاني أضعف، وكل ذلك بعد الفكّ القانوني للأخوات المجتمعات على زوج في عدّة عقود زواج.

صعبٌ مشاهدة دموعها المنهمرة حين أمسكت بشهادة ميلادها أول مرة، وانسداد مجرى الكلمات من كثرة التأثّر، يجعلك تقف عند مفهوم النكران في تفاصيل حياتك عند راحة الاعتياد، حيث الراحة في التنقل

والسفر والذهاب والإياب والعلاج، تطبيق حقيقي لمعنى الحَمْد حين توفر النِّعم.

لم أعلم بعد ذاك اليوم كيف أكملت رحلتها مع الباقين المنسيين، ولكني تيّقنت من وجود المنسيين بجانبنا التصاقًا دون أن نشعر بهم، رغم شدة قربهم منّا.

وقديماً قالت الصوفيّة: شدّة القُرب حجاب.

القصة الحادية والعشرون

الولد للفراش وللعاهر الحجر؛ قاعدة قانونية شرعية تطبّق يومياً في دعاوى إثبات النسب، يفهمها المختصون، عندما سَمِعَتها وقفتْ كثيرًا عندها وكأنّها شيفرة تحتاج إلى تفكيك. هي التي عاشت زوجة وأم، ثمّ ارتضت لنفسها علاقة أخرى في ظل الزوجية، أيمكن أن نسمع واصفاً ايجابيا لهذا السلوك، اجتماع واجماع على أنها زانية وخائنة لم تصن الزوجية ثم تنقطع الكلمات، لم يسأل أيّ واصف أو طرف قريب منها أو منه كيف هو؟ وكيف كانوا؟ وهل شكت قبل ذلك أو بكت من زوجها؟ أو جاءت تستجدي عطفاً أو مساعدة؟ ثمّ عادت أدراجها مع نصيحة الصبر، وتضطر للمعاشرة الروتينية، وأكثر الألم إنجاب أطفال في ظل هذا التردّي العاطفي. لا أبرر مطلقاً الخطيئة قاصدًا مصطلح

الخطيئة، فلا مبرر للخيانة كمبدأ ولا تُتبنّى الفضيلة أو تُنكر اعتمادًا على ما هي كينونة من أمامي أو ماهية سلوك الطرف الآخر، إن كان سلوكه ملائكياً أو شيطانيًا أو بيْن بيْن، ولكن للأحداث دوافع وعوامل.

ذات يوم وجدت أطفالها تحت مجهر فحص الوراثة DNA من قبل والدهم، غرقت في التواري الداخلي وفي خوفها والتجأت إلى التواري الخارجي خوفاً من القتل، لا أعلم إن كانت هذه اللحظات كافية لطلب الغفران أو طريقاً تمهيدياً للغفران.

في خطوة استباقية أخفت الصغير معها، وكأنّها تعلم أنّه قد يسقط في نتائج الفحص الطبي، وسقط الصغير في الفرقة عن أخوته، حيث أنّه ابن هيَ وهوَ، كيف تقبّلوا الصغار فرقة أخيهم الصغير الذي انتقل من مفهوم الشقيق إلى النكرة؟ هل حاولوا أن يتخيّلوا له بيتاً جديدًا مع أمّهم؟ وكيف شكل البيت؟ وما وصف أمّهم الجديد في مخيلتهم، بعد كل التفاصيل الجديدة وبهارات الحكايا؟، عنفٌ مُحضّر سابقًا يوجب منع سؤالهم عنها، كيف يتحكم الكبار بتفاعلات الصغار مع أبوّتهم وأمومتهم؟ وكيف يُمعنوا في استعمالهم في لحظات استعار نيران الانتقام؟ عجيبٌ التنقل من دائرة الحب والشغف والاشتياق إلى دائرة الكراهية، بكل تفاصيل أدواتها المتشيطنة، خطوات عنيفة على ذكريات المنزل حتى تُدمى، وتذهب كل تفاصيلها مع الريح بلا عودة، وغبار الأيام تغطي ما تبقى منها.

فحصٌ غير قانوني، أجراه بعد الشكّ في زوجته، وأُثبت جينياً أنّ الزوج أب لاثنين من ثلاثة، هذا الفحص المخالف للقانون، أبقى قسرًا نسب

الطفل الصغير الثالث لمن داعَبَهُ صغيرًا، "يا استاذ الولد للفِراش" هذه الجملة التي سمعها ولم يدرك معانيها ولا استوعب مضامينها بعد شرحها، أراد شطب الطفل الصغير مع زوجته وقلب الصفحة، يصرخ مستجديًا ليصحو من كابوسه، مهشّمٌ في ارتباكه، ومُدمى في رجولَتِه، حتى فقد بوصلة النّفس المطمئنّة، وفقد معها سلامة القرار، وعلى غفلةٍ من الجميع المحيطين أو في غفلة مصطنعة منهم، قتل الأثنين وانتهت الخطيئة! فهل انتهى نطاقها الممتد إلى الأطفال الباقين؟

لعلّ غياب المرشد الروحي في الصغر، والتعايش مع الحياة الماديّة دون تذوّق حلاوة النفس في سموّها الروحي، يجعل مواجهتنا للأزمات أعقد، وخالية من التسامح، نكون فيها معصوبي عينيّ البصيرة، حين البحث عن مخرج أو توّجه في اتّجاه واحد للأمام مثل الخيل أو الجاموس.

الخاتمة

يسعدني أن أختم كتاب "حكايات متشابهة، الزوجات؛ "جيم الجنة في الجحيم"، وهو كتاب قَصصي من تأليف الزميلة القاضي صمود ضميري، والذي يلقي الضوء على الظلم الاجتماعي الذي تواجهه النساء في مجتمعنا الفلسطيني نتيجة تقاطع ثلاثي العناصر؛ من الاحتلال والقصور القانوني والعادات والموروث السلبي. ويعتبر هذا الكتاب مصدرًا أساسيًا لأي شخص يبحث عن نظرة ثاقبة للنظام القانوني الموسوم بالتعددية والقصور وتأثيره على شؤون الحياة في فلسطين.

يأتي دعم هذا الكتاب ضمن جهود حثيثة ونشاطات مكثفة ضمن مشروع الشابات من أجل التوعية، الوكالة، المناصرة والمساءلة (YW٤A) الذي ينظمه مكتب العدالة بين الجنسين في الكنيسة الانجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة بالتعاون مع شبكة Faith to Action وبتمويل من وزارة الشؤون الخارجية في حكومة هولندا. ويتمثل الهدف الاستراتيجي لهذا المشروع في الدفاع عن حقوق الشابات في الكرامة والسلامة الجسدية وهذه حقوق إنسانية عامة مكفولة للجميع، إلى جانب تعزيز المشاركة المتساوية في صنع القرار ، وإحدى سبل الوصول إلى هذه الأهداف السعي نحو تغيير الأعراف والممارسات الاجتماعية السلبية وخاصة في المؤسسات والمنظمات الدينية والتي يظهر فيها

تقيد لحقوق الشابات في فلسطين أكثر من فضاءات أخرى في حيز العمل العام، وكل ذلك سيتم العمل عليه من خلال إشراك القادة الدينيين والعمل معهم على تغيير الاعراف السلبية وتحييدها، وتعزيز النظرة الايجابية لمواقف أفراد المجتمع بشكل إيجابي تجاه حقوق الشابات، إلى جانب تعزيز الممارسات الإيجابية من قبل الذكور من خلال ممارسة الذكورية الإيجابية التي تعزز التوازن الطبيعي؛ لضمان سلامة الشابات والاستماع إليهن.

الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة هي كنيسة عربية محلية موجودة في فلسطين والأردن، وهي المؤسسة الدينية الوحيدة في فلسطين التي دمجت المساواة بين الجنسين وحقوق المرأة في قانون الأحوال الشخصية الداخلي الخاص بها. وتعمل الكنيسة من خلال مكتب العدالة بين الجنسين على تحدي الأعراف الاجتماعية السلبية القائمة على النوع الاجتماعي، وتمكين النساء والفتيات في المجتمع، عن طريق تنفيذ فعاليات تستهدف بحث ومعالجة الأسباب الجذرية للتميز المؤسسي والاجتماعي ضد المرأة، مع التركيز بشكل خاص على معالجة الثغرات القانونية التي تديم عدم المساواة بين الجنسين.

ومن خلال مشروع الشابات من أجل التوعية، الوكالة، المناصرة والمساءلة قامت القاضي صمود ضميري وزميلتها القاضي سكارليت بشارة بإنشاء مجلس الحكيمات وهو مبادرة نسوية فلسطينية؛ تتبنى مبدأ المواطنة كأداة للتطوير التشريعي، وتسعى إلى تعزيز الهوية الفلسطينية كلغة لترجمة مصالح النساء. وتبنّت الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي

المقدسة هذا المجلس نظرا لأهمية دعم مبادرات وبرامج تتماشى مع أهداف مكتب العدالة بين الجنسين بتعزيز العدالة والمساواة للجميع. ويؤمن مجلس الحكيمات بأنّ المنظمات الدينية في فلسطين لديها القدرة على المناصرة وإصلاح القوانين التي تميز بين الجنسين والتي تؤثر على تعزيز قدرة النساء على المطالبة بحقوقهن الإنسانية والتمتع بها. لذلك هناك حاجة إلى جمع الأدلة لتعزيز ومأسسة إجراءات المناصرة لمعالجة وتغيير القوانين التي تفرز تمييزًا بين الجنسين وتؤدي إلى تقويض حقوق المرأة والمساواة بين الجنسين في فلسطين.

"حكايات متشابهة، الزوجات/ جيم الجنة في الجحيم"؛ يعتبر إضافة قيمة للجهود الجارية لأنّه يسلّط الضوء على الحاجة إلى تحدي ومعالجة السلوكيات السلبية المرتبطة بالأعراف والمعايير الاجتماعية التي تعيق وإعمال وتبني قواعد العدالة والإنصاف ووصول المرأة إلى حقوقها، وآمل أن يساهم هذا الكتاب في فهم أعمق لأهمية تحقيق المساواة والعدالة والإنصاف والشمول والتضمين بين الجنسين، وأن يلهم العمل نحو خلق مجتمع أكثر إنصافا وشمولية.

رنان عيسى أبو شنب
مديرة برنامج العدالة بين الجنسين
في الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة

صمود ضميري؛
أوّل قاضٍ شرعي تتولى رئاسة النيابة الشرعية في القضاء الشرعي الفلسطيني في العام ٢٠١٠، وأوّل عضو محكمة استئناف شرعية في محكمة استئناف القدس الشرعية، وحاصلة على جائزة النزاهة والشفافية عن القطاع العام من ائتلاف أمان للنزاهة والشفافية في فلسطين.

تحمل صمود ضميري درجة البكالوريوس في القانون من جامعة النجاح/ فلسطين، ودرجة الماجستير في الدراسات الإسلامية المعاصرة من جامعة القدس / فلسطين، ودرجة دبلوم المهارات القانونية من جامعة بيرزيت/ فلسطين، وتتابع دراسة الدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية في جامعة غوتنجن / المانيا، وتتابع دراسة اللاهوت من خلال دراسة ذاتية في كلية الكتاب المقدس في بيت لحم / فلسطين.

عضو في عدة لجان وطنية منها؛ لجنة الاحتضان، ونظام التحويل الوطني للمعفنات، وعضو المجلس الاستشاري لوزارة المرأة، وعضو

الفريق الوطني لمناقشة التقرير الأولي لدولة فلسطين الخاص بـ "اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة" مع اللجنة المعنية بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة التابعة للأمم المتحدة، وعضو فريق قطاع العدالة في فلسطين من ٢٠١١-٢٠١٨، ولها عدّة أبحاث منشورة منها؛ التجربة القضائية الشرعية النسائية الفلسطينية بين الشريعة والقانون باللغتين العربية والإنجليزية، ضمن كتاب Uses of the past والصادر عن Harrassowits Verlag في العام ٢٠١٨، وبحث The Impact of Personal Status On The Interests of Individuals: The Palestine Case ضمن كتاب International Law between translation and Pluralism والصادر عن Harrassowits Verlag في العام ٢٠٢٢، وبحث بعنوان الأحوال الشخصية في فلسطين بين التعددية والالتزامات الدولية من خلال مشروع الشابات للتوعية والوكالة والدعوة والمساءلة مع الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة في العام ٢٠٢١.